وثامنهم كلبهم

وثامنهم كلبهم

تأليف : داود الشويلي

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع : ٢٠٢٤

الترقيم الدولي : ISBN: ٩٧٨-٩٩٢٢-٨٨٥٦-٨-١

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (١٧٨٣) لسنة ٢٠٢٤

تصميم الغلاف والاخراج الداخلي : سوسن كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان: بغداد – شارع المتنبي – مجمع العهد الجديد – الطابق الاول

الهاتف: ٠٠٩٦٤٧٧١٤٣٤٣٦٩٢ \ ٠٧٧٢٩٢٤٧٠٨٨

alwarsha٢٠١٨@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من الاشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر , ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

وثامنهم كلبهم

رواية

داود سلمان الشويلي

٢٠٢٤

٨١٣/٩٠٥٦٣
ش ٩٩٨ الشويلي ، داود
و ثامنهم كلبهم / داود الشويلي
٠-ط- بغداد : دار الورشة الثقافية ، ٢٠٢٤
١٥٦ ص ؛ ٢١ سم
١- القصص العربية – العراق
٢- العنوان

رقم الايداع
٢٠٢٤/١٧٨٣

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر
رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (١٧٨٣) لسنة ٢٠٢٤

الاهداء

ألى ابني ذو الفقار داود الشويلي أهدي هذا الجهد الروائي.

مدخل
"ضباب الذكريات"

حدث هذا لي في ليلة ما من ليالي الشتاء السابقة، ليالي البرد الصعيقي، والدثار الصوفي السميك، وأنا أطفيء الأضواء، وأستعد للنوم مبكرا في فراشي الوثير بعد تحضير واجباتي المدرسية، وقد كنت وقتها صبيا لم يبلغ الحلم بعد، وأنا بكر والديّ، إذ دخل والدي غرفتي، وأضاء المصباح الكهربائي، وجلس على حافة سريري، وحكى لي، والدي "القصة خون"[1]، الذكر الطيب له، متمنيا له نوما هنيئا تحت الأرض بسلام المقابر، عندهت استقمت جالسا على فراشي الدافئ، الوثير لاستمع له، فقال:

- اسمع يا بني حكاية سبعة من الشبان البدو، واستدرك قائلا: ربما هم من البدو، والله أعلم، فأنا لا أعرف من أية أرومة هم، مع ثامنهم كلبهم بشعره الصوفي الأبيض الطويل، وعيونه الواسعة، وذيله الطويل مثل حية، وهو يتحرك إلى جميع الاتجاهات، دخلوا مدينتنا، التي هي سرة الكون، الواحد بعد الآخر، وهم حذرين، غير آمنين، للبحث عن الطعام، والماء بعد أن ناموا في كهف خارج المدينة، وقتلوا فيها، ولم يعرف عنهم شيئا، فسجلت حادثة قتلهم في سجلات الشرطة المحلية ضد مجهول، وراح دمهم هدرا، ولم يطالب به أحد، لا أب، ولا أم، ولا أخ، ولا قريب حتى، وبعد أن مضى على قتلهم سنوات طوال، وقد نسى الناس حكايتهم، هذه المدينة الخيالية التي لم يروا مثلها، وهي مدينتنا، ولا في الأحلام الشتائية، أو

الصيفية، على الرغم من حقيقتها الناصعة، والواضحة للعيان. ظلت هذه المدينة غافية في الأذهان بعد وفاة هؤلاء الشباب، وفطس كلبهم.

تساءلت مع نفسي وأنا أستمع لحكايته: هل كان والدي يمرّن لسانه على قول الكذب أمام جمهور مقهى محلتنا التي يروي فيها حكاياته عن الزير سالم، وعنترة بن شداد، وسيرة ذات الهمة، والبطال، وحسن آكل قشور الباقلاء، وحكايات ألف ليلة وليلة، وأساطيره، وخرافاته، غير الواقعية؟ في كل ليلة من ليالي رواد مقهى المحلة.

ربما هذا، وربما غير ذلك. وهو محق في كل هذا لأننا، نحن عائلته، نعتاش على أكاذيبه تلك، فهو كلما يكذب أكثر كلما زادت رفاهياتا في الحياة، وكان مثل الكاتب الذي عليه أن يكذب لكي يستمر في العيش. فحكاء الحكايات، وكاتب القصص، سيان في الوصف، فهذا حاكي، وذاك كاذب، والسامع هو الضحية، ضحية مع إدراك تلك الضحية انها ضحية الكذب الذي تسمعه من فم الحكواتي هذا.

لم يكن والدي قد تعلم الحكي من أحد بل كان منذ صغره كذّاب أشر، يروي الحكايات العجيبة، والغريبة، والقصص الخرافية، والأساطير القديمة، مع تحريك جسده لأن للجسد لغة يفهما الناس المستمعين. وكان يهوّل الأشياء، ويضع البهارات عليها، ويطلق البخور على ما يرويه للآخرين، وبهذا صار حكاء المقهى الذي لا منازع له في المحلة، ولا يجاريه أحد في كذبه.

---

(١) القصة خون هو الحكواتي الذي يجلس كل ليلة في المقهى ويحكي لوادها الحكايات الشعبية.

أرادني والدي أن أرث مهنته هذه، أي أن أرث الكذب بعده، وأكون كذاب مقهى المحلة بعد أن يحيل نفسه إلى التقاعد في صنف القصة خونية، الكذابين، وهكذا كذبنا لكي نعيش، ونبقى، وتستمر بنا الحياة.

***

روى والدي ما سأرويه أنا لكم، فأقول:

- كان يا ما كان، كان ....

و"كان" هذه في اللفظ العامي لها "چان" بالجيم المثلثة، هي أكثر كلمة أستخدمت في كتاباتنا الروائية، أو القصصية، أو النقدية، أو في قول الحكايات على لسان "القصة خون"، أو الراوي، أو الحاكي، وذلك لأننا نتحدث عن الماضي، والماضي السحيق خاصة، لأننا قليلوا المواجهة لحاضرنا، أو لرسم لوحة عن مستقبلنا، لأننا سلفيون في حياتنا، ماضويون في رؤيتنا، غير مستقبليين، وهذا شيء خطير جدا، أن يخلوا أدبنا – إلّا النادر منه – من رؤية مستقبلية، أو حديث عن الآن ذاته الذي نعيشه، لهذا سترى عزيزي القاريء كلمة "كان" وتصريفاتها الكثيرة جدا تصل حد المئات.

و"كان" ليست معناها ان زمانها قد مضى، فهي ما زالت معششة فينا، تعيش معنا، وكل حياتنا التي نعيشها هي تكرار لزمنها، فهل – مثلا – انتهت تغذيتنا، أو اروائنا، أو تنفسنا. هل انتهينا من النمو؟ هل انتهينا من الزواج؟ هل انتهينا من ولادة الأطفال؟ هل انتهينا من الموت؟ حتى صور الموت لم تتبدل عبر الزمان، والمكان، فما زلنا نموت حتف انوفنا، وما زلنا نموت قتلا، وهذا القتل أيضا يتكرر عبر الزمان سوى ان أداة القتل تختلف، بين ضربة يد، أو ضربة خنجر، أو سيف، أو رمح، وبين القتل بالمسدس، أو البندقية، أو المدفع، أو

تنوعات الانفجارات، أو دهس بسيارة، أو دراجة، أو قطار، أو، أو، أو. فكان الموت ساري المفعول من الانسان الأوّل إلى انسان اليوم، وسيستمر إلى نهاية الكون.

إذن، كلمة "كان" كلمة ناجحة، فهي دائما تجد لها مكانا في كتاباتنا، وستستمر دائما، وهي كلمة مثيرة مثل شجرة يانعة دائمة الخضرة، تعطي ثمارها في كل فصل، وفي كل مكان، وزمان.

***

بدأت الحكاية على لسان "القصة خون"، والدي، وأنا من بعده، وكانت تفتقد لأي امرأة، لا عجوز، ولا شابة، ولا طفلة، لها دور فيها، لأنها في الأساس غير موجودة في الأحداث التي وقعت، لا كما الأفلام، والمسلسلات، الأمريكية التي يحشر فيها الناس السود ليقولوا ان لا وجود للتمييز العنصري في أمريكا.

ابتدر "القصة خون" بعد أن تنحن بصوت أجش، وسلك فمه بلسانه، فقال:

- ..... .

***

القسم الأوّل

(١)
عنكبوت، وحمامة، وشجرة بلوط، وكلب

ما شأن هذه الكائنات الأربعة بحكايتنا هذه، وهي ثلاثة من الكائنات الحيوانية، والرابع من الكائنات النباتية، واثنان من الكائنات الحيوانية تتكاثر بتفقيس البيض، والثالث، وهو الكلب، يتكاثر بالحمل، وأيضا البشر، وكلهم لهم الدور الكبير في قصة الشباب السبعة الذيم فروا من الأعداء، ووصلوا إلى الكهف الذي سنحكي عنه الآن.

***

خارج الكهف المنسي كان النهار ساطع البياض، يغشي الأبصار، والشمس كانت في كبد السماء الزرقاء، كانت مشرقة، وواضحة، وهي ترسل الضوء إلى داخل الكهف، وكانت الريح باردة، ومتقلبة في شدتها، فمرة تهب من الغرب، وأخرى من الشرق، وهي تصفر، ولصفيرها لحن حزين. هذا الكهف محفور في منتصف المسافة إلى قمة الجبل الصخري، وكانت الصخور فيه ملساء، مسننة، وحادة تقطع اللحم بأنواعه، وغير قابلة للمشي عليها إلا بصعوبة جارحة. الجبل هذا الذي خيّمت على فتحة كهفه شجرة بلوط، كبيرة، وهرمة، فلم تترك للبشر السائرين بالقرب منه أن يروا ما في داخله، وكان اسمه "برزاخ"، فكان قريبا من أي سحاب يمر به، وقمته مثل سنام البعير، ودائما جرداء صيفا أو شتاء لهذا فهو قليل الزوار له، ولا يعرف ان كان هو الذي يطرد الزوار أم ان الزوار هم الذين لا يحبون زيارته، والصعود لقمته؟

وشجرة البلوط هذه هي جنس نباتي من الفصيلة الزانية، يضم أنواعا كثيرة من السنديان، والبلوط، بعضها شجيري، وكثير من الأشجار

الضخمة، والمعمرة قد تبلغ من العمر ما بين ٥٠٠ - ٢٠٠٠ سنة، وقد نبتت بعد دخول الشباب الكهف، واستقرارهم فيه.

كانت هذه البلوطة كبلوطة "ممرا"[١] مرئية من الناس الذين يمرون على الكهف فتسد نظرهم عن مشاهدة ما في داخله، وفتحته التي سدها بيت أنثى العنكبوت، فيما ربضت حمامة بيضاء على بيضها، وكان هذا المربض دائما للحمام، حمامة تربض على بيضها حتى يفقس فتطير هي، وصغارها، مبتعدة عن المكان لتأتي حمامة أخرى تبيض في المكان نفسه حتى يتجمع تحت جنحيها بعض البيض فتربض علية حتى يفقس عن فراخ عديدة مختلفة الأشكال، والألوان، وهكذا يستمر تكاثر الحمام، فيما انثى العنكبوت تصيد الحشرات ببيتها الشبكي الواهي.

كان الكهف منسيا في مكانه الصخري منذ الأزل، ولا يمكن الوصول اليه إلا بعد تسلق صخور كثيرة مسننة، وحادة، ويدخل فيه يوميا ما تجود به شجرة البلوط، من أوراق متساقطة انتهى عمرها على الأغصان، وتلك الأغصان يابسة، متكسرة، وبعض الأثمار الطرية، أواليابسة، التي تدفع بها الرياح إلى داخله فتتكون على شكل مجاميع حتى باتت في أكوام يابسة، متحجرة، متروكه في مكانها دون ان تلمسها يد أو تراها عين بشر، أو حيوان.

تكوّن الكهف داخل الجبل من صخوره الملساء، والجرداء، وهو أجرد من كل شيء، فلا جذر نبتة، ولا جذع، أو أغصان، ولا أوراق خضراء في

(١) كان ممرا أحد حلفاء النبي إبراهيم.

أرضه، أو جدرانه، ولا سقفه. كان أملسا، ورطبا، وهواؤه فاسدا يبعث رائحة مثل رائحة الكبريت.

كان الطريق اليه شبه سالك قبل ألف عام، حيث كان البشر، والدواب، يمرون بمحاذاته دون أن يسترعي انتباههم مرة واحدة فيدخلوه. كان المطر ينزل بكثافة أو مثل الرذاذ فيزيده رطوبة، وكانت الرياح تهب فتجفف بعض تلك الرطوبة الوخمة. وكان البرق يضيء، وينطفيء، فيضيء داخله مرة، ويظل أظلما مرة أخرى، ويصوّت الرعد بجلبة عالية يسمع صداها داخله، وهو يرددها عدة مرات.

كانوا البشر يمرون به دون أن يغيروا شيئا منه، فلا صخرة منه تفتت، ولا فتحته كبرت أو صغرت، ولا رطوبته جفت، ولا رائحته الوخمة أزيلت.

في هذا اليوم بالضبط راحت اشعاعات الشمس المشرقة تدخله بلا استئذان، أو "إحم، ولا دستور"[١]، بعد أن سقطت شجرة البلوط التي كانت تسد فتحته لتآكل جذورها بعد أكثر من ثمانمائة عام مضى حيث كانت قد زرعت من تلقاء نفسها من بذرة كانت مرمية في الأرض فسدت فتحته، وعاشت هذه الشجرة لأكثر من ثمانمائة عام خضراء، مثمرة، لهذا غطت أغصانها، وأوراقها، فتحة الكهف حيث خيّمت عليه، ولما سقطت انكشف ما في داخله بعد ان طارت الحمامة، وفراخها، وتمزق بيت العنكبوت الواهن من جراء القِدم، واختلاف الفصول، وعوامل الطبيعة من مطر، ورياح، ورطوبة، وجفاف.

(١) عبارة تقال عند الشروع بالدخول لدار غريبة ليأخذ نساء أهلها استعدادهن في الحشمة.

كان الكهف الحقيقي هذا لا كهف "فرويد" النفسي، فكان هو السجن لهؤلاء الشباب حيث ناموا أكثر من ثمانمائة عام في ذلك الكهف/ السجن.

***

كانوا سبعة لا ثامن لهم، ولا هم ستة، سبعة بعدد أيام الاسبوع، وبعدد فتحات أم "سبع عيون"[١] الزرقاء التي تضعها العوائل في واجهة بيوتهم دفعا للحسد. سبعة من الشبان الذين ضاقت بهم دنياهم بما رحبت، فهربوا خفيه، وتحت جنح ليلة سوداء مظلمة ماطرة، من عيون الناس كافة، وخاصة من عسس بغداد المدورة من المغول المسلحين بالسيوف، والخناجر، والرماح، وبالأصفاد، وأكياس الرأس القماشية، زمن بداية الأحتلال المغولي لبغداد المدورة، ولم يجدوا مكانا يأويهم غير هذا الكهف المنسي الواقع في منتصف الطريق الصاعد إلى قمة الجبل الصخري العالي، وكان هذا الجبل واحدا من سلسلة جبال منتشرة في المنطقة، وهي تمسك الأرض لإلّا تميد.

ولكي أكون أمينا في نقل شخوص، وأحداث ما أرويه، والابتعاد عن أذى الأحياء، والموتى على السواء، بشرط ألا تزعج من يقرأها، فقد أبقيت على أسماء الشخوص كما هي، وأسماء الكتب، ولم أغيّر أي شيء فيها، وهذا حق من حقوق الشباب التي كفلها الدستور، والأعراف، والقانون، والشرع، فوجودي أنا بين هذه الأحداث، والشخوص، والمسميات، مثل شرخ يتسلل منه ضوء النهار لا ضوء مصباح "نيون"

(١) وهي تميمة طينية أو خزفية شبه دائرية لها سبع فتحات توضع في واجهة الدار لتحفظه من الحسد.

نهاري السطوع، كنت متطفلا عليهم مع بعض الكذب التي تخولني وظيفتي، وهي وظيفة "القصة خون".

***

قد أكون قد حلمت، وأنا نائم، بما رويته في هذه السطور، أو انني قرأت عنه في كتب صفراء، أو ألفته من خيالاتي التي تشطح بي دائما، أو من بنات أفكاري، أو هي ذكريات كانت مختبئة في تلافيف ذاكرتي القوية، وتشرق بين الحين، والآخر، كومض البرق. أنا لا أعلم مصدرها الحقيقي إلا ان واحدا من بين هؤلاء المذكورين للتو هو الصحيح، وقد بذلت مجهودا ذهنيا كبيرا في استحضاره، وأفرق بين ما هو جدير بأن يروى من أحداث، وشخوص، وما هو غير جدير بالرواية، والذكر.

لقد رويت ما رويته بلا قناع ناعم أو خشن كقناع زورو[١]، أو قناع الشاعر البياتي الذي يلبّسه أبطال قصائده، فكنت مكشوف الوجه، ناصع السريرة، أبيض اليدين، كيد موسى عندما خوطب بأن يدخلها في جيبة لتخرج بيضاء من غير سوء.

***

كانوا سبعة يحضّرون لشهادة رتبة الحكيم في المدرسة المستنصرية في مقارنة الأديان، والأحزاب السياسية الفكرية. كان زيهم زي طلاب علم، وقد صممه الخياط المشهور عبد الله بن سهيل الطبراني البغدادي، وهو يتكون من عمامة بيضاء تتدلى منها ذؤابه من الخلف تصل لمنتصف الظهر، وهي مرصعة من الأمام بدبوس "مشبك" معدني يرمز

(١) قناع زورو: فيلم سينمائي.

إلى المدرسة المستنصرية، وجبة مطرزة تطريزا خاصا بخيوط ذهبية، و"كالوش"[١] جلدي أسود اللون.

***

كان اسم الشاب الأوّل "جميل"، وهو أجمل من صبية أوكرانية، أبيض البشرة كبياضها، وشعره أشقر كشقرة شعرها الطويل، وكانت أمه تمتلك التناسق، والرصانة، والرشاقة، وهذه الصفات في ملامح وجه صبية أوكرانية ساحرة الجمال، مع جمال جسدها. وكان قلبه مشغولا بحب ابنة عمه التي اسمها "جميلة" مؤنث اسمه كما أراد والديهما الأخوة، وقد تزوجها قبل شهر تقريبا من محاولة القاء القبض عليهم،وكان "جميل" من عائلة كردية.

والشاب الثاني اسمه "حلو" وهو أحلى من عسل نحل البرسيم الصافي. كان شابا نحيلا تبدو ان عظامه بارزة إلا ان ذلم لم يحدث، كان قوي البنية، له عينان عميقتان، وحيوبتان، وكان ذكيا في درس الفلسفة. كان قد طلب يد ابنة الجيران، وكانت ابنة تاجر قماش معروف. وكان من عائلة صابئية مندائية.

والشاب الثالث اسمه "نور"، وهو أكثر نورا من نور القمر الساطع ليلة تمامه قبل أن ينشق, كان ناعم البشرة، أبيضها، وقسمات جسمه مرهفة جدا، وبعيون ناعسة، شبه ذابلة لجمالها. وينطبق عليه قول الشاعر امريء القيس:

اقتربت الساعة وانشق القمر من غزال صاد قلبي ونفر

(١) كالوش بواو مبسوطه محرفة من قالوش أو غالوش الفرنسيه حذاء يلبس فوق الحذاء عادة يعمل بالبلاستيك. يلبسه عندنا رجال الدين.

كان وحيد أبويه، جاء بعد ثلاثة مواليد ماتوا بعد أيام من ولادتهم، وكان مدللا، لم يطلب شيء إلا أخذه.

وقد أحب درس الرياضيات لأنه أحب الذي كان يدرسه، ويحمل له مشاعر الحب، والهيام، إلا انه لم يخبر الشيخ المدرس بهذا الحب فظل مكتوما في القلب، يراه ليلا، ورأسه على الوسادة.

كان من عائلة مسلمة على المذهب السني، وكان جده معتزليا، وقد قتله الخليفة العباسي المتوكل فيما سمي بمحنة القرآن.

والشاب الرابع اسمه "ضياء"، وهو أكثر ضياء من ضياء الشمس المشرقة، وأسطع نورا، وشاطرا في لعبة الشطرنج، فيما زوجته ابنة خاله، وقد تزوجها قبل سنتين، ولم تنجب له أبناء. وكان مسلما على المذهب الشيعي.

والشاب الخامس اسمه "نهار"، وهو أكثر اشراقا من أي نهار يومي ظهر على الناس. وقد أوقف جل وقته على القراءة، وحضور دروس شيوخ الطب، فلم يتزوج، ومشروع الزواج عنده معطلا إلى حين. وكان من عائلة مسيحية.

والشاب السادس اسمه "ريحان"، وهو أكثر رائحة طيبة من رائحة الريحان الطبيعي الأخضر، وهو سيد البصيرة النافذة، وكانت عمامته تخفي الصلعة التي غزت شعر رأسه، وكان كبيرهم في السن، ومتزوج. وله من زوجته بنت واحدة سماها "رياحين". وكان مسلما على المذهب السني، وكان جده قدريا من سلالة معبد الجهنى.

والشاب السابع اسمه "قداح"، وهو أكثر تضوعا من رائحة القداح الذي يفوح من زهر النارنج عند تفتحه، والذي مثل حجر القدح،

ويمتلك قوة ملاحظة، وذاكرة غير اعتيادية، وله ولد واحد سماه "صباح". وكان من عائلة يهودية.

ولا اسم للثامن لأن الشاب الثامن لا يعرفون اسمه لعدم وجوده بينهم كما ذكرت المصادر المعتبرة.

هؤلاء الشبان كانوا جميعا يكحلون عيونهم بكحل الأثمد الذي يجلو البصر، وينبت الشعر في الأهداب، سوى "قداح" الذي تكحلت عينيه طبيعيا. كانوا يتعلمون عند الشيوخ أنفسهم، في المدرسة ذاتها، ويحضرون دروسهم في المكتبة العامة ذاتها، وعندما طوردوا فانهم طوردوا جميعا من عدو واحد، فناموا في كهف واحد، وقتلوا في مدينة واحدة، بالآلة ذاتها، وهي الاختراعات الحديثة التي اخترعت، فغزت العالم، وبات استخدامها ضروريا في كل مكان.

***

كان لهم كلبا أبيض الشعر، وصوفي طويل، وبياضه أكثر نصوعا من بياض ثلج سيبيريا وقت سقوطه من السماء. وكان لسانه يتدلى دائما من فيه، وهو يلهث عندما تحمل عليه أو تتركه فهو يلهث فهو يلعق الهواء الجاف الذي أمامه بلسانه، ومنخريه. وكان هذا الكلب الذي اسمه "وفاء" قد خرج معهم هاربا دون أن يعرف من أي شيء يهرب، وإلى أي مكان، وهذا الكلب هو كلب الشاب الأشقر، فكان يربض عند فتحة الكهف الصخري بعيون مفتوحة ترى كل شيء، وترصد كل حركة حتى دبيب النمل الصغير كرادارات الطائرات الحديثة. وبآذان صاغية كاصغاء ابن لأبيه، وهو يعضه، وكما يترصد الموبايل الأصوات فينتزعها من الأثير، ويحولها من نبضات كهرومعناطيسية إلى أصوات في الأذن فتتحرك مطرقة الأذن على سندانها فتحدث الأصوات. كان يربض

بالوصيد، وهو يمد قوائِمَه، وقد لسِق بالأرض لسوقا، وأقام هكذا طيلة هذه الفترة التي قاربت الثمانمئة عام، والتي مرّت في التاريخ الماضي الذي لم أدركه إنا، ولا أبي، وجدي.

***

دخلوا سبعتهم الكهف، وظل الكلب في الخارج يتشوف القادمين لو جاؤوا، وكانوا يلهثون، وقد قهرهم الحر، مع كلبهم الأبيض، وصوت لهاثهم مسموعا لمن يمر من جانب الكهف. كانت صدورهم السبعة، وصدر كلبهم، تصعد وتنزل، تمتلئ بالهواء ثم تزفره كما يحدث لكير الحداد.

قال كبيرهم الذي أقنعهم بالهروب من مجتمعهم الذي شعروا بأنه قد أحتل من قبل المغول، بصوت بالكاد يفهم من بين لهاثه المستمر، وصعود صدره، وانخفاضه:

- سنبقى هنا لفترة قصيره حتى نرتاح قليلا ثم نخرج لنذهب إلى مدينة الرجل العادل الذي لا يظلم عنده أحد.

قاطعه الشاب الأشقر قائلا، وهو ينظر إلى كلبه الذي غفى بالوصيد:

- انها بعيدة جدا يا صديقي، ونخشى أن يلحقوا بنا، ويلقوا القبض علينا، ويعيدوننا إلى السجن، ونحن لم نصل لها بعد، وبيننا وبينها بحر واسع، وهم ليسوا على سنخنا إلا انهم لا يتكلمون لغتنا.

ردّ الكبير بعد أن هدأت أنفاسه، وذهب لهاثه، وأعيد لون وجهه:

- الصباح رباح، وعند الصباح يَحْمَد القومُ السَّرَى. سننتظر الصباح لنرى ما نفعل، سنكون في صفاء ذهني تام، علينا أن نفكر جيدا قبل أن نتخذ أي قرار ربما نندم عليه. علينا جميعا ان نقرر ماذا علينا فعله، أي أن نشترك في القرار، ولا ينفرد به أحدنا.

كانت وجوه زملائه مشدودة إليه، وآذانهم مستنفرة، وهي صاغية، وبصرهم منصب على فمه، وما يخرجه من كلمات. أردف بعد ذلك قائلا ليتأكد من أن قوله قد سمعه الجميع، وكان الكلب من ضمنهم لأنه فتح عينية، واشرأبت أذنيه، وعوى بصوت عالٍ كأنه يشاركهم الحديث:

- أليس كذلك يا أصحابي؟

قال الأشقر، وعلائم الخوف بادية على وجهه الأبيض ذي السحنة الأوكرانية، والذي بدأ بالاحمرار:

- هل سيرونا الناس، ونحن في الكهف؟ لو نظروا إلى الأسفل لرأونا فيه، علينا أن نجلس في عمقه البعيد عن الفتحة لتلافي النظر الينا.

عندها انتابت الشباب موجة من الذعر المخفي الذي لا مبرر له، وتسارعت ضربات قلوبهم مرة أخرى، وهي في صدورهم، وبدأ لهاثهم يعود اليهم كأنه عادة لهم.

ردّ الشاب ضعيف البدن إلا انه أكبرهم سنا "ريحان"، وهو ينهض من مكانه ويتجه مباشرة إلى فتحة الكهف:

- لا تخف، ولا تخشى، هذه انثى العنكبوت، وهي تنسج خيوط بيتها في الفتحة، وتلك حمامة تبدو انها تريد أن تبيض في أرضية الفتحة، وذاك كلب الشاب الأشقر بالوصيد، فلا تخافوا، ولا تحزنوا، انهم معنا لا ضدنا.

قال الشاب الأسمر البشرة كبشرة صبية مملوحة:

- انظر إلى تلك النبتة كيف انها بدأت تخرج من الأرض، وبدأت تنمو، وتتفرع منها مجموعة من الفروع، وتنبت الأوراق الخضر.

أدار الشباب الستة رؤوسهم إلى فتحة الكهف، ومن بين ظلامه في الداخل، وبين ضوء الخارج رؤوا ان نبتة بدأت تنمو، شاهدوها، وهي تكبر، حتى تفرعت إلى سبعة فروع، تحمل في كل فرع ورقة خضراء صغيرة فيما أخذ جذعها يغلظ، ويتصلب، شيئا فشيئا حتى استدار، وامتلأ فصار ثخينا.

وضع الكلب رأسه بين قوائمه الأمامية الملتسقة بالأرض، وسد عينيه مرة أخرى، ورفع صيوانات أذنيه يتنصت لأي صوت تردده أكثر من ٢٣ هيرتز، وهو خارج مدى ما يسمعه البشر.

كانت أنظار الشباب السبعة متجهة للنبتة التي تنمو شيئا فشيئا لا يمنعها شيء ما، ولا يصدها أمر من أمور الدنيا الفانية، عيونهم مبحلقة بها، آذانهم تتسمع لنسغها الصاعد، وهو يمرر الماء، والغذاء، إلى شتى أجزائها، فيما يرون كيف ان ضوء الشمس يدخل ثغور ورقها الأخضر، يرون ببصيرتهم كيف يصنع الغذاء، وكيف تنمو، وتكبر. كان كل شيء من أمامهم واضحا، وبيّنا، كل شيء حتى طاف عليهم النوم، وأحسوا به يأخذهم إلى صفه دون مقاومة، وكان الكهف رطبا، وأظلما، وهو أملس الجدران بقاع وسخ.

***

قال "ريحان" متهكما، بعد أن هدأ باله إثر إيجاد هذا الكهف البعيد عن الناس:

- اننا موجودون طالما يذكرنا الآخرون. وها هم العسس ذو التوجه المغولي يذكرنا فطاردنا لقتلنا، ونحن هاربون منه.

وضحك، وضحك بقية الشباب، والكلب كشر عن أسنانه دون أن يفتح عينيه.

قال "قداح" بعد أن جلس على الأرض، ومدد ساقيه:

- أتنوون الاقامة هنا فترة طويلة؟

ردّ "ريحان" قائلا، وهو واقف قرب فتحة الكهف:

- سنرى ذلك غدا. لنعرف ردود فعل العسس عندما لم يجدوننا في المدينة.

قال "نور" بعد ان هدأ لهاثه، وسكن تنفسه شهيقا، وزفيرا:

- ستمر علينا أوقاتا عصيبة. فعلينا تحملها.

مدد "ضياء" ساقيه، وأغمض عينيه، وراح يبدو كالنائم.

لقد صارا، الشبان السبعة، وكلبهم، من جهة، والكهف من جهة ثانية، كتوأمين سياميين لا ينفصلان.

***

(٢)

الطريق إلى السجن

لم أكن، أنا "قصة خون" مقهى محلة السراي التي تضم أحياء كثيرة، وكانت القيصرية من ضمنها، وسوق الصفافير، والحدادين، والنجارين، والندافين، والصاغة الذي كل العاملين فيه هم من ديانة الصابئة، ونبيهم يحيى المعمدان، لم أكن مهوسا "بفرويد"، وما قدمه من كشوفات في علم النفس لأدرس نفسيات شخوص ما أروي عنهم، وما يقومون به من أفعال، وسلوكيات. ولم أكن من أصحاب أي فيلسوف لأفلسف سلوك هؤلاء الشخوص أو أعمالهم. ولم أكن عالم اجتماع لأدرس حالتهم الاجتماعية، أو عالم أخلاق لأدرس أخلاقهم، وأزنها بميزان العرف، أو القانون، أو الشرع. كل ذلك بعيدا عن تخصصي الأدبي، بل لأقدم تلك الأحداث، وما فيها من شخوص فاعلة. أنا مثل "سلمان باك" كما تذكر بعض المصادر عن لقبه "باك"، أي أبيض، لا شائبة فيه، ولا كدر. فأنا أكتب بحد السكين اذا جاز القول لي، واستقامة، وهكذا كنت مع شخوص ما أرويه من أحداث، وحوادث، وأمور حدثت، وأنقل ما حكاه والدي الكذاب الأشر، فكان الحائط الفاصل بين أبناء الشعب، وبين السلطة العباسية وقتذاك قائما بينهما مما جعل الاثنان، وكأنهما في جزيرتين نائيتين أحداهما في القطب الشمالي، والأخرى في القطب الجنوبي. أو بين بهو البلدية في المدينة، والمبني بالكونكريت المسلح كالمضيف القصبي المزهو بقصبه، وبواريه، وبين حديقة "الدب" في الطرف الشرقي من شارع الحبوبي

الذي كان يدعى "عگد الهوا" أو "عگد الهوى"[١]، وتغير اسمه بعدها إلى شارع الحبوبي الذي ينتصب في منتصفه تمثال الشاعر، والمجاهد، والشهيد، والمرجع الديني، محمد سعيد الحبوبي الذي قاد معركة الشعيبة بين المجاهدين العراقيين، وبين قوات الاحتلال الانكليزي عام ١٩١٥، وقد توفي في الناصرية، وقد جسده النحات الذي قاري الفنان عبد الرضا كشيش.

كان التمثال باردا لا حرارة فيه رغم عباءته الصوفية، وجبته، وعمامته، وهو يتوكأ على عصاه الخشبية، وبيده ورقة ملفوفة، وكأنه يقول ان أهداف ثورة المجاهدين لن تتحقق أبدا في ظل الاستعمار الانگليزي، وها هي في ملفوف الورقة.

***

أما الشباب السبعة فهم: الشاب الأوّل، واسمه "جميل"، وهو من عائلة ثرية، فأبوه تاجر كبير، له دور كثيرة ورثها من آبائه، وهو أجمل من صبية أوكرانية، كأمه ابنة أحد وزراء الخليفة، تناسق بين أجزاء جسمها، بيضاء البشرة، وكان مثلها كمثل ثلج سيبيريا، وشعره أشقر كشقرة شعرها الطويل، ولون عينية كلون البحر مثل لون عينيها، وملابسه ناعمة كنعومة جلده، وكما هي، وكان يمشى بخطوات محسوبة، إلا ان صوته خشن كصوت مدخن سيكارة "اللف" التي كان الناس يبتاعوها من رزاق "التتنچي" في قيصرية القماشين المتفرعة من شارع الحبوبي الذي يشق المدينة من الشرق إلى الغرب بين منطقة العروبة، وبين منطقة المايكروويف.

(١) عگد الهوى: وهي التسمية اقديمة لشارع الحبوبي. عگد = شاره. الهوى = الحب. أو ان التسمية جاءت من عرض الشارع فهو شارع تلعب به الرياح فيكون مدعاة للسير، والتنزه فيه.

كان الكلب الأبيض بأنفه الذي يتنشق كل رائحة، يتعقبه كتابع بونتيلا في مسرحية الكاتب برتولد برشت "السيد بونتيلا وتابعه ماتي" حتى وصوله إلى بناية المكتبة المركزية فوقف عند الباب الحديدي للبناية لا يجرؤ على الدخول، فلم يدخل البناية، وأقعى قرب السياج الخارجي لها حتى ان الداخل إلى المكتبة المركزية يراه بالوصيد، وهو قرب السياج في الظل، ورآه الشباب الستة عند دخولهم بناية المكتبة المركزية التي كانت هادئة، والصمت فيها هو اللغة المعروفة بين روادها.

ذهب صباح يوم الجمعة إلى المكتبة العامة في المدينة التي كانت تقع مقابل بناية المحافظة، واستعار كتابا ضخما، أحمر الغلاف، فيه صورة رجل ملتحي، وكان عنوانه "رأس المال"، وكان فرحا به حيث تأمل منه أن يعلم الفقراء كيفية جني المال، ومن يحتاج لهذا المال ليتزوج به، ويرسل أمه إلى الطبيب، وأبيه إلى مكة لأداء فريضة الحج، ويشتري لأخوته الصغار الملابس، ويرسلهم للكتّاب ليتعلموا القراءة، والكتابة، ويفكوا الخط.

كانن يحلم بأن يكتب اطروحته لرتبة الشيخ الحكيم عن رأس المال كما أشار عليه شيخه الدار قطني في المدرسة.

جلس على أحد مقاعد قاعة المطالعة، وقد زرع عينيه بين سطور الكتاب المفروش على منضدة المطالعة الكبيرة، وبدأ يقرأ فيه، والأوراق تطوى بين الحين، والآخر، ولم يصرف ذهنه لأي شيء، ولا للجالسين في القاعة، والوقت كان صباحا في حدود الساعة العاشرة حيث كانت الشمس في طريقها اليومي إلى قبة السماء اللازوردية لتسخن أشعتها، وتحتر، وكانت واضحة أيضا، والعيون تنظر لها، وهي نصف مغمضة لتحجب الضوء الساطع عنها.

وفي القاعة الواسعة مجموعة من الشباب الذين زرعوا عيونهم في الكتب المفروشة على الطاولة التي يقرأون فيها.

أما الشاب الثاني، واسمه "حلو"، وكان والده من عائلة "قرة" الصابئية، كان منجم الخليفة. وأمه وصيفة زوجة الخليفة. وهو أحلى من عسل نحل البرسيم الصافي، وتشك في وجوده المادي لأنه لا يتكلم، ولا صوت له، فقد وجد في المكتبة العامة كتاب بغلاف أخضر مرسوم علية صورة رجل بلا لحية، وعنوان هذا الكتاب هو"التنجيم"، وكان يجلس على أحد مقاعد قاعة المكتبة يقرأ فيه ليحضر اطروحته لرتبة الشيخ الحكيم عن "المبعث"، وكان شيخه قد اختار موضوع هذه الاطروحة، وقد زرع عينيه بين سطور الكتاب فيما كان الكتاب مفروشا على منضدة المطالعة الكبيرة، والأوراق تطوى بين الحين، والآخر، ولم يصرف ذهنه لأي شيء، ولا للجالسين في القاعة. وكان الوقت صباحا في حدود الساعة العاشرة، وعشر دقائق، حيث كانت الشمس تصعد، وهي في طريقها اليومي المعتاد إلى سمت السماء اللازوردية الصافية لتسخن أشعتها، وتحتر كثيرا.

والشاب الثالث اسمه "نور"، وهو ابن قائد عسس الخليفة، وكان دائما يزرع عينية في الأرض التي تحته، كان شديد الحياء. وهو أكثر نورا من نور القمر الساطع ليلة تمامه قبل أن ينشق، والشاعر امرؤ القيس يقول:

دنت الساعة وانشق القمر/ من غزال صاد قلبي ونفر

تربي "نور" في عدة مدن في الدولة العباسية وراء مكان عمل والده. وكان هذا الشاب قد استعار كتابا من المكتبة العامة بغلاف أصفر،

وفيه صورة رجل، وهو واقف، ويحمل جزءا من ملابسه في يده اليسرى. وتوجد حول رأسه هالة مع أشعة الشمس تشير إلى عقله المشع، كما توجد بجانبه زهرة اللوتس، وعنوان هذا الكتاب هو "الدّامابادا" الخاص بالديانة البوذية، وقد انكب الشاب عليه محني الظهر، وهو مفروش على منضدة المطالعة يقرأ فيه بلا صوت، ولم يصرف ذهنه لأي شيء، ولا للجالسين في القاعة ليحضر اطروحته لرتبة الشيخ الحكيم في مقارنة الأديان، وقد أشار عليه شيخه أن يتناول موضوعه هذا بالدراسة، والتحليل. وكان الوقت صباحا في حدود الساعة العاشرة، والربع، حيث كان قرص الشمس المتوهج يصعد، وهو في مساره اليومي المعتاد إلى سمت السماء الزرقاء الصافية، ولتسخن أشعته، وتحتر كثيرا.

والشاب الرابع، واسمه "ضياء"، وهو ابن مدير ديوان الخليفة، وهو أكثر ضياء من ضياء الشمس المشرقة في سماء زرقاء صافية كعين طائر، وكان مستقبله الذي يرمي اليه هو مستقبل باهر يخلف والده في مديرية ديوان الخليفة. عيناه في صفحة كتاب لو أغلق لرأيت غلافه ورديا، وفيه رسم وجه رجل كث اللحية، يضع على رأسه غطاء أبيض اللون، ويلبس ثوبا أبيض اللون كالثلج أو ندف القطن، وقد كتب عليه "أفستا"، ولم يصرف ذهنه لأي شيء، ولا للجالسين في القاعة إذ كان يحضر اطروحته لنيل رتبة الحكيم في مقارنة الأديان كما سجل عند شيخه عنوان هذه الاطروحة. وكان الوقت صباحا في حدود الساعة العاشرة، وعشرين دقيقة، حيث كانت الشمس تصعد، وهي في طريقها اليومي المعتاد إلى قبة السماء اللازوردية الصافية لتسخن أشعتها، وتحتر كثيرا.

والشاب الخامس الجالس على المقعد الخامس في قاعة المطالعة للمكتبة العامه اسمه "نهار"، وهو ابن طبيب الخليفة، وأكثر اشراقا من أي نهار يومي ظهر على الناس. وكان يروي الحكايات على أقرانه. وكان قد مضت ساعة من الزمن، ولم يرفع عينيه من ورق الكتاب الذي فرش على طاولة الكتابة أمامه، وهو يقرأ فيه، ولو طويناه لرأينا غلافه أسودا كليل القارة القطبية الشمالية، وقد رسم عليه بحبر أبيض وجه رجل آدم، طوال، جعد، كأنه من رجال شنوءة، ولم يصرف ذهنه لأي شيء، ولا للجالسين في القاعة، وكان يحضر اطروحته لنيل رتبة الحكيم في موضوع الطب كما اتفق مع شيخه في المدرسة، وكان أعور العين. وكانت الساعة تشير إلى العاشرة، والنصف، حيث كانت الشمس تصعد، وهي في طريقها اليومي المعتاد إلى سمت السماء اللازوردية الصافية لتسخن أشعتها، فتحتر كثيرا.

كان من أنبغ طلاب المدرسة في الطب حيث لم يجد صعوبة في كل الدروس التي ألقيت عليه، وكان من المشاركين في النقاش، وممن يحصل دائما على مديح شيخه، وثنائه، وهو من اسرة بختشيوع المسيحية المشهورة بالطب.

وعلى المقعد السادس جلس الشاب السادس بعمامته، وجبته، ضئيل الجسم إلا انه أكبر الشباب السبعة سنا، وكان اسمه "ريحان"، ووالده مسؤولا عن مطبخ الخليفة، وهو يعبق برائحة طيبة أطيب من رائحة الريحان الأخضر، وقد ترك بصره ينتقل بين كلمات، وسطور الكتاب المفروش أمامه على طاولة القراءة. وكان غلاف الكتاب أبيضا كقطن مصر، وقد رسم عليه وجه شاب ضعيف البنية، مصلوبا على خشبة قائمة بعارضة علوية، وكتب علية "البشارة"، ولم يصرف ذهنه لأي

شيء، ولا للجالسين في القاعة، وكان يحضر اطروحة نيل رتبة الحكيم في مقارنة الأديان كما اتفق مع شيخه على عنوانها، وكان الشيخ أبيض الوجه، حليق الشارب. وكان الوقت صباحا في حدود الساعة العاشرة، وأربعين دقيقة، حيث كانت الشمس في طريقها اليومي المعتاد إلى أن تصل إلى قبة السماء اللازوردية الصافية لتسخن أشعتها الذهبية، وتحتر.

أما المقعد السابع، والذي ينتصب لوحده في ركن من أركان قاعة المطالعة فقد كان مخصصا للشاب السابع، واسمه الذي نقش في ميدالية فضية اللون يحملها على صدره، وقد نقش فيها اسم "قداح"، وهو من عائلة الفيلسوف اليهودي موسى ابن ميمون، ووالده مسؤولا عن خيل الخليفة، وهي وظيفة أورثها لهم جده الأوّل الذي خدم في حضرة الخليفة العباسي الأوّل أبي العباس السفاح، وكان يسعى لخلافة والده مسؤولا عن خيل الخليفة. وهو أكثر تضوعا من رائحة القداح الذي يفوح من زهر النارنج عند تفتحه. ويقدح النار قدحا، وكان هذا الشاب هو الذي يقرأ في كتاب أخضر غلافه كلون ورق الأشجار المتفتحة في فصل الربيع، وقد كتب علية "الكتاب"، ولو تصفحنا غلافه لوجدناه مرسوما عليه رجلا يغطي شعر رأسه بقطعة قماش خضراء، وراحت عيناه تبحلقان في الكلمات، والجمل، والسطور، ولم يصرف ذهنه لأي شيء، ولا للجالسين في القاعة، وكان يحضر اطروحته لرتبة الشيخ الحكيم في موضوع فلسفة الآديان كما أشار عليه شيخه بعنوانها. وكان الوقت صباحا في حدود الساعة العاشرة، وخمسين دقيقة، حيث كانت الشمس في طريقها اليومي المعتاد إلى سمت السماء اللازوردية الصافية لتسخن أشعتها، وتحتر.

كانت عيناه واسعتين مكحلتين كحلا طبيعيا، ورائحة المسك تفوح منه كأنه خرج للتو من برميل ملآن مسكا.

***

كانت اطروحات الشبان السبعة لنيل رتبة الشيخ الحكيم قد أحبوها على الرغم من ان الشيوخ المشرفين هم الذين اختاروها لهم.

كان كل شاب من الشبان السبعة يضع خاتما من الفضة مزدان بحجر ثمين في أصبعه الخنصر سوى "ريحان" الذي يضع خاتمين اثنين كل واحد في اصبع كفه الصغير.

***

خيّم الصمت داخل قاعة المطالعة، وعشعش في رؤوس الشباب كعصفور صغير خرج للتو من بيضته، وكان يمتد بين الشباب، وآثاث قاعة المطالعة. بين المنضدة، والكراسي. بين صور الرجال الشعراء المثبتة على حائط قاعة المطالعة، وهي تفتقد لصور النساء الشاعرات، فهل وسوس الشيطان لمسؤولي المكتبة أن لا يضعوا صور الشاعرات على الجدران؟ وبين أوراق الكتب المفروشة على طاولة القراءة، وبين ما تحمله تلك الأغلفة من رسومات تفتقد لانثى كاتبة، وقد كانت سجاح صاحبة دين فلماذا الشيوخ لم يطلبوا من طلابهم أن يدرسوا دينها مقارنا، والأديان الأخرى؟ وكانت رسوم الرجال تشهد بذلك، والجميع بلحية كثة سوى اثنين لم يكونوا ملتحين، وكان الصمت، وظلت أسئلة الطلاب بلا أجوبة.

كانت الجدران البيضاء تشهد صمت الحضور كـ "صمت الحملان"[١]، وحسحسة نقل ورق الكتب الصفراء، فيما كان فلاح المكتبة المركزية في المدينة، "بدشداشته" البيضاء، ويشماغه الأسود، والأبيض، الملفوف على رأسه، وقد تحزّم على دشداشته من المنتصف، وحمل أذيالها ولفها إلى ذلك الحزام الجلدي العريض، ينسق بعض نبتات الورود المزروعة في الحديقة الأمامية لبناية المكتبة، وقد طرح أرضا منجله المعكوف المسنن، فيما ارتفعت شجرتان من أشجار اليوكالبتوس عاليا حتى علت فوق البناية، وكان ظلهما من تحتها تتشابك أغصانها، وأوراقها، خفيفا. وقد غادر المدير البناية، وموظف الاعارة يجلس، وهو يشرب استكان الشاي الساخن، وكانت الكتب على رفوفها الحديدية باردة من لمسة أصابع القراء، وأجواء المكتبة في هدوء تام عندما دخلت مفرزة العسس إلى قاعة المطالعة، والفيل أمامهم يسير أمامهم، وخرطومه الطويل ملتف إلى الأعلى بكل هدوء، وسكينة، وكان الشارع الذي يفصل بين بناية المكتبة المركزية، وبين بناية المتصرفية خاليا من البشر، والحيوانات، فالوقت كان ما قبل الظهر بأقل من ساعة، والفصل صيفا، وحرارة الشمس في تزايد.

***

(١) صمت الحملان فيلم أمريكي إنتاج عام ١٩٩١ من بطولة أنثوني هوبكنز بدور «هانيبال ليكتير» والذي حصل على جائزة الأوسكار لأفضل ممثل عن دوره في هذا الفيلم. وشاركته الممثلة جودي فوستر في دور «كلاريس ستارلينغ» والتي حصلت بدورها على جائزة الأوسكار لأفضل ممثلة.

في ذلك الوقت، وعند دخول الشبان مكتبة المدينة المركزية وقع غزو مغولي على بغداد قتل على أثره الخليفة ففر بعض رجاله إلى خارج البلد، وقتل شيوخ المدرسة المستنصرية، وطلابها، وطورد بعضهم، وكان هؤلاء الشبان السبعة من الذين نجوا من القتل لوجودهم في المكتبة إلا انهم وقعوا ضحية العسس.

كان الجميع في القاعة في واد، وهم لم ينبسوا ببنت شفة، ولم يعرفوا بالتغيرات الأخيرة، ودخول الفيل الضخم عليهم في وادٍ آخر. اشرأبت العيون إلى الفيل الكبير الذي يقودة رجلا يرتدي ملابس العسس، ووضعت الأقلام، فيما دخل وراء الفيل مفرزة كاملة من العسس مدججين بالسيوف، والخناجر، والرماح، والأصفاد، يقودهم ضابط برتبة مقدم يحمل في حزامه سيفا بقبضة ذهبية في غمده المذهب، فيما عمامته السوداء تغطي صلعته المحاطة بشعر أبيض قصير.

كان الفيل قد سدّ بجسمه الكبير باب القاعة، وهو ينش بخرطومه كل شيء يقترب من الباب، فيما مسك كل واحد من أفراد المفرزة بشاب من الشباب الجالسين في القاعة، ولوى يده إلى الخلف، ووضع الكيس في رأسه، بعد أن أخذ الكتاب الذي يقرأ فيه. عندها تكلم الشاب "ريحان" قائلا:

- لقد ابتلينا بقوانين مطالعة غير مرئية، ولا مكتوبة، أليست المطالعة مسموحة؟ لم نستعير كتابا غير مسموح قراءته فلم يعتقلونا؟

وقال الشاب "ضياء" بامتعاض بان على محياه:

- هل نحن من جماعة النشال عثمان الخياط[١] لكي يلقوا القبض علينا؟ اهكذا أصبح طلبة نيل رتبة الحكيم كاللصوص؟ حتما ان آباءنا لن يقبلوا بمثل هذا الأمر؟

***

كان الأوّل يفكر في أن الزمن هو السجن. وجال في تفكير الثاني ان الزمن هو السجن، وهكذا مرّ هذا الهاجس في تفكير الشباب السبعة، وقد وعوا ذلك جيدا، وأصبح هو الادراك الأمثل لهؤلاء الشبان السبعة، وتبعهم كلبهم في ذلك الادراك الانساني فرأوا ان الكون أصغر من أن يضمه جيب ملابس طفل صغير.

خرجت مفرزة العسس من بناية المكتبة المركزية يتقدمهم آمرهم المقدم فيما هم يكبلون أيدي الشباب السبعة، ويغطون رؤوسهم بأكياس قماشية سوداء لا يرى منها شيئا، وقد وضع كل عسس يده الأخرى على رأس شاب من الشباب السبعة فأحناه، وأحنى ظهره، واركبوهم العربة الخشبية للعسس، وسارت بهم نحو مركز شرطة بغداد المدورة.

كان الشباب لا يسمع منهم كلمة واحدة فيما كانت الكتب التي كانوا يقرأون فيها قبل هجمة مفرزة العسس على قاعة المطالعة، ويكبلوا أيديهم، ويغطوا رؤوسهم، كانت مركونة جنب المقدم الجالس قرب سائق العربة.

---

(١) إنه كبير اللصوص في العهد العباسي كتب وصية لأتباعه من النشالين والحرامية، قال فيها: لا تسرقوا إمرأة ولا جاراً ولا نبيلاً ولا فقيراً وإذا غُدر بكم فلا تغدروا بهم وإذا سرقتم بيتاً فاسرقوا نصفه واتركوا النصف الآخر ليعتاش عليه أهله ولا تكونوا مع الأنذا.

سبعة كتب هي خلاصة تفكير مؤلفيها، هي البيضة الذهبية التي باضها تفكيرهم، هي عسل نحل هذا التفكير، انها العصارة التي سيقارنون بينها، وبين هؤلاء الشباب السبعة.

كان الطوفان هو التعبير الصحيح عما يعيشونه في هذا الزمن، الزمن السجن الذي وجدت السلطة الغازية في الكتب هذه هو شعلة التحرر الكامل لكل انسان يعيش في هذه المعمورة، وكان التاريخ في بغداد هو تاريخ الدولة العباسية في زمن الخليفة المستعصم بالله في حدود العام ٦٥٦ من الهجرة التي حدثت من مكة إلى المدينة، وقد قتله التتار رفسا بالأقدام عند دخولهم بغداد. وكان هؤلاء الشبان السبعة من طلبة زمن احتلال التتار لبغداد، وسقوط الدولة العباسية. وكانت المكتبة المركزية العامة في المدينة من ضمن هذه الدولة، فأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا، وَأَحْسَنُ نَدِيًّا؟

لقد سدّ هذا الطوفان كل حواس الشباب، ولم يستطع أحد منهم فتح فمه ويطرح أية قضية حتى من القضايا التي درسوها، وناقشوها مع اساتذتهم الشيوخ.

***

(٣)
الحرية المفقودة

في يوم تموزي لاهب، لا ريح فيه، ولا مطر، أو رعد، وبرق، بل جفاف قاتل، إذ تشققت شفاه الناس، وكانت أرضية الشوارع الترابية تعكس أشعة الشمس إلى الأعلى حارة، ولاهبة، وجافة، في ما يشبه الدخان، فنز العرق، وتعرقت الأجساد، ففاحت منها رائحة حريفية أشعرت الشباب بالاضطراب، وكانت عربة العسس قد وصلت بالشباب السبعة إلى مركز بغداد المدورة. نزل الضابط آمر المفرزة بسيفه الطويل، وغمده بذؤاباته الخيطية الملونة، فنزل العسس، ومعهم الشباب المكبلين بالأصفاد، ورؤوسهم في الأكياس القماشية السوداء، وساروا في ممر طويل، وهم محنيوا الظهر، والرأس، حتى وصلوا إلى نهايته، وتركهم حراسهم، وعادروا.

فكر كل واحد من الشباب السبعة مع نفسه في أمر العسس الذي كان يمسك به، وهو يلوي يده إلى الخلف، ورأسه للأسفل، قال "جميل"، وهو يحدث نفسه:

- كم هو بغيض هذا العسس كأنه أحدب نوتردام؟ لقد آلم يدي، وهي ملتفة خلف ظهري، وظهري محني، ورأسي كذلك.

فيما قال "حلو" مع نفسه، وهو يشبّه العسس الذي يمسكه من يده الملتفة إلى ظهره:

- كم هو بغيض هذا العسس، وكأنه حبة حنظل مرة؟ لقد لعبت نفسي من مسكة يدي، وجعل ظهري محنبا.

وقال "نور" بحدث نفسه عن العسس الماسك بيده الملتفة إلى ظهره، وظهره محنيا:

- كم هو بغيض هذا العسس، وكأنه بئر مظلم من كل نور لقد آلمني؟

وقال "ضياء" وهو يحدث نفسه، ويذكر العسس الذي كان يضغط لاحناء رأسه، وهو يقاوم ذلك:

- كم هو فاسد هذا العسس، وكأنه اعصار شديد حمل معه دخان أسود غطى ضوء الشمس؟

فيما قال "نهار" وهو يحدث نفسه عن العسس الذي قاده محني الظهر، والرأس، وقد آلمته فقرات عنقه، وهو لم ير شيئا البتة:

- كم هو غشيم بقوته هذا العسس، وكأنه ليل القطب الشمالي الذي يمتد أكثر من ستة أشهر؟

وقال "ريحان" وهو يصف العسس الذي قاده إلى هنا بينه، وبين نفسه:

- كم هو فاسد الرائحة كبيض فاسد هذا العسس اللعين؟

وقال "قداح" يكلم نفسه عن العسس الذي جاء به إلى هنا:

- كم هو نتن هذا العسس ففاحت منه رائحة نتنة كالرائحة المنبعثة من "شط الخيسة"[١]؟

***

لف المكان صمت ثقيل كالرصاص، وملأ آذانهم بثقله فسأمته، وملته، نفوسهم الرقيقة، وتسلل في عمق الممر الضيق الطويل الذي

(١) شط الخيسة = أي الماء الآسن، أو شطيط، وهو شط، أو نهر صغير حفر في الجانب الشمالي للمديمة، وقد كوّن ترابه "روفا، ، أو سدا ترابيا" عاليا يدرء المدينة من الفيضان السنوي الذي يهددها.

يقفون فيه، وقد اخفيت رؤوسهم بكيس قماشي أسود، وكان الجميع هادئا كهدوء الفئران، وهي ترى انسانا بيده مضربا كي يضربها به، عندها صاح كبير الشباب سنا "ريحان" كاسرا جليد الصمت هذا، قائلا:

- من يتقدم إليّ لأرفع الكيس عن رأسه بقدميّ اللتين خلعت عنهما "الكالوش"، سأجعله يرى، وسيخرجنا من هذا السجن البغيض؟

كان "ريحان" بطلا في فريق المدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله عام ٦٣٠ للهجرة، وكانت مركزا علميا، وثقافيا، هاما. وتقع في جهة الرصافة من بغداد.

شيدت المدرسة المستنصرية على مساحة ٤٨٣٦ متراً مربعاً، وتطل على شاطئ نهر دجلة بجانب قصر الخلافة، وبالقرب من المدرسة النظامية، وكانت تتوسط المدرسة نافورة كبيرة فيها ساعة المدرسة المستنصرية، وهي ساعة عجيبة غريبة تعد شاهداً على تقدم العلم عند العرب في تلك الحقبة من الزمن تعلن أوقات الصلاة على مدار اليوم.

ومكتبتها زاخرة باعداد ضخمة من المجلدات النفيسة، والكتب النادرة. وبلغ تعدادها ٤٥٠ ألفاً، وتعد مرجعاً للطلاب. كما قصد المكتبة الكثير من العلماء، والفقهاء، وترددوا عليها، وافادوا من كنوزها العلمية، والأدبية، نحو قرنين من الزمن. وقد نقل الخليفة العباشي نفائس الكتب من مختلف العلوم، والمعارف ما يقدر بحوالي ٨٠ ألف مجلد بحسب الصنوف.

يتم اختيار الطلاب من المدارس المختلفة، ومن الذين اشتهروا بالتأليف، والتصنيف، والتدريس، من مختلف المدن في العراق، والبلدان الأخرى، كالأندلس، ومصر، وبلاد الشام، وأصفهان، وخراسان.

وتتألف المدرسة من طابقين شيدت فيهما مائة غرفة بين كبيرة، وصغيرة، إضافة إلى الأواوين، والقاعات.

***

تقدم أحد الشبان، واصطدم به، فنزع الشاب الكبير كيس الشاب فرأى بأم عينه ان الممر الطويل هذا فيه باب يفتح إلى الخارج فأخبر الشباب الستة الباقين، وقادهم بعد أن مسك كل شاب بحزام الذي قبله، وخرجوا إلى الحرية المفقودة التي كانت تنتظرهم عند الباب الخلفي لبناية مركز شرطة بغداد المدورة.

لم يجدوا أي واسطة نقل مثل العربات أو الخيول أو الحمير أو البغال أو الجمال تأخذهم إلى خارج المدينة بل انهم قصدوا ألا يستخدموها في تنقلاتهم فراحوا يجرون في الأزقة، والأطفال من خلفهم يصفقون، ويهزؤون، ويرددون كلمات تصفهم بالمجانين حتى خرجوا من المدينة، وهم يلهثون من شدة الجري، والأكياس قد منعتهم من النظر إلى ما يحدث في الشوارع، والأزقة التي ساروا فيها، والجو الحار، فيما كانت هناك صورة كبيرة معلقة على أعمدة حديدية لمرشح برلماني، وهي تبتسم.

***

عند "الهروب" يكرم المرء أو يهان، هذا ما قاله الشاب الرابع "ضياء"، وكان طويلا، ضعيف البنية على خده وحمة سوداء لاتخطئها العين في انها رافقته منذ الولادة. قال ذلك، وهم في طريقهم إلى المجهول كما قال الشاب الثالث "نور".

نزعوا الأغلال، والأصفاد، والأكياس، التي تحد من حريتهم المفقودة، رموها بعيدا، وارتاحوا منها.

كان الطريق إلى تلك الحرية كما قال الشاب الأول الذي يشبه صبية أوكرانية طريق معبد بأشواك عندها سألة الشاب الخامس الذي كان شابا بسط الجسم، في لسانه لثغة:

- أتقصد انه معبد بأشواق؟ وأية أشواق هذه؟

ضحك الجميع، وضحك السائل أيضا.

تركوا المدينة خائفين، وهم يتلفتون، وكأنهم وكزوا رجلا من شيعة السلطان حتى خرجوا من المدينة، ووصلوا إلى المنطقة الجبلية التي تحيط بمدينتهم فرأوا في منتصف المسافة الصاعدة إلى أحد الجبال العالية كهفا فارتقوا اليه، تسلقوا الممرات الضيقة، والمتعرجة، وهم يجتازون الصخور بالأيدي، والسيقان، والأسنان، وكانت قلوبهم تتلاحق النبضات فيها، حتى تمزقت ملابسهم، وسال الدم من أيديهم، وأقدامهم، ووصلوا اليه، ودخلوا فيه، وكان أظلما، رطبا، أملس الجدران، في أرضه أوساخ، ومخلفات الأشجار، وما تذروه الرياح من كل شيء، ولا شيء فيه من الحشرات الضارة، والتي يخشون منها خوف أذيتهم. سدت أنوفهم "وخمة" الكهف المتروك منذ ألاف السنين.

كان الظلام قد غشى الكون، حتى الكائنات الأخرى هدأت، وسكنت، ونامت في جحورها. فجلس الشباب صامتين في ظلمة الكهف، وبالكاد كانوا يرون بعضهم البعض، فرأوا بعيون بالكاد ترى الأشياء، أنثى عنكبوت تنسج بيتا لها في فتحة الكهف سادة إياها بخيوطه، وفي الوقت نفسه رؤوا حمامة بيضاء حطت عند مدخله، وباضت، وربضت على بيضتها، فيما الكلب الأبيض الذي يرى بياض شعره في الظلام، قد وصل للتو إلى الكهف مادا لسانه، وهو يلهث من الجري، فأقعى عند فتحة الكهف حتى انتزع أنفاسه من اللهاث، وأخذ يلعقه.

كانت أبصار الشباب متجهة إلى فتحة الكهف، يشاهدون انثى العنكبوت، وهي منهمكة في نسج خيوط بيتها، وإلى الحمامة الرابضة على بيضتها الوحيدة، والكلب الأبيض المقعي على الأرض، وهو ينظر إلى أمام يترصد أي حركة خارج الكهف، وفجأة برزت من بين صخور أرضية فتحة الكهف نبتة صغيرة ما برحت أن امتدت نحو الأعلى، وتفرعت إلى فروع عدة، وكل فرع في نهايته ورقة خضراء من أوراق شجرة البلوط، فعدّ الشاب الثاني فروع النبتة فرآهن سبعة فروع عندها أيقن ان جماعته الشباب لن يصيبهم مكروها، وان الكهف هو ملجأهم النهائي، فأخبر جماعته الشباب بذلك، فمد الشباب شفاههم السفلية علامة الاستياء، والتذمر.

***

أكملت أنثى العنكبوت نسج خيوط بيتها، فيما باضت الحمامة بيضا حتى صار سبعة، وصعدت النبتة الصغيرة إلى الأعلى فصارت شجرة بلوط مثمرة، وخيّمت على فتحة الكهف حتى أظلم كليا من الداخل، وظل الكلب الأبيض بالوصيد، وهو يراقب كل شيء من أمامه، وقد رفع صيواني أذنيه عاليا ليرصد كل نأمة، أو دبيب شيء.

كان الشباب السبعة صامتين، وكان الصمت حملا ثقيلا عليهم، لكنه وضعهم أمام احتمال طغيان ذاكرتهم، وفتح ما فيها من جروح غائرة في القدم، فقد ابتلوا بلعنة التذكر، وظلوا صامتين فلم تبدر منهم أي آهة أو كلمة، وكان الكهف من الداخل هادئا، مظلما، رطبا، يشجع على النوم لهذا أحس الشباب السبعة بأن الكرى غزا عيونهم التي لاتبصر الأشياء في هذا الكهف، وكانوا لا يتمتعون بآلة النسيان المضادة لجيوش ذكرياتهم، فالذكرى، ومهما كان قدمها، تطفو على سطح ذاكراتهم

القوية، إلا ان الكرى قد أرخى سدوله على عيونهم، فأحسوا بثقلها، وهم لا يشعرون بمجيئه، وقد غادرهم كليا الأرق الأحمر الذي يترك العيون حمراء كالدم، إذ تلاشى عن أعينهم هذا الأرق، وكان الأمر أشبه بسحابة سوداء خيمت على عيونهم، فيما كان النهار خارج الكهف مشرق الشمس، وهي تغازل الكائنات كافة، والحياة تسير قدما، والناس تحيا.

كانوا فبل أن يأخذهم النوم بسلطانه القوي يفكر كل شاب في نفسه دون أن يخبر الشباب الآخرين، كانوا يفكرون جميعا في طعامهم، وشرابهم، وملابسهم الممزقة من أثر الصعود إلى الكهف، والتعرق فيها، ومن كل شيء قذر في هذا الكهف.

طافت، وما زال الكرى يثقل العينين، في ذهن الشاب الأوّل ذكريات تحتفظ بها ذاكرته القوية عن ليلاه التي أحبها، وقال فيها شعرا، إلا انها عافته وتزوجت شخصا آخرا. يتذكر جيدا الشعر الذي قاله في زواج ليلى:

(بربِّكَ هل ضممتَ إليكَ ليلى /// قبَيْلَ الصُّبحِ أو قَبَّلْتَ فاها)

كان قيس يسأله ان كان ضمها اليه، وقبّل فاها، إلا ان الشاب الأوّل لم يلتق بهذه الزوجة، وظلت غصة في بلعومه الجاف.

فيما مرت في ذهن الشاب الثاني ذكريات طفت على ذهنه الذي تفجّر هذه اللحظة بالذكريات القديمة، والحديثة، لون الثوب الذي كانت ترتديه حبيبته في بيتها، إذ رآها دون أن يتعمد المشاهدة وهي ترتدي الثوب الأحمر بلون خديها الترفين، وما زال الكرى يثقل عينيه، ولا رادا له.

وظل ذهن الشاب الثالث محاولا أن يبعد الكرى الثقيل عن عينيه دون جدوى، فيما طفت على سطح ذاكرته آلاف الذكريات القديمة، والحديثة، ولم يكن له حيلة في دفعها إلا انه تمسك بدفتر ذكريات حبيبته الصغير.

وعندما يكون وجه الشاب الرابع معبأ مثل الآن فان سيل الذكريات قد اجتاحته، والكرى كذلك، وهو محتار بين التأثر بالكرى، وبين رؤية شريط ذكرياته، بين أن يستسلم لثقل الكرى على عيونه، وبين رؤية ما تعرضه ذاكرته من خزينها الذي لا ينضب.

وهكذا كان الشباب الباقين، وهم في جهادهم بدفع ثقل الكرى عن عيونهم، وفي الآن نفسه في رؤية ذكرياتهم، وهي تعرض كشريط سينمائي أمام عيونهم التي غمضت من ثقل الكرى الذي كان معششا في فضاء الكهف.

كان النوم هو سيد الموقف هنا في الكهف، بظلامه، وجوّه الوخم، وأرضه القذرة، وحيطانه الملساء، وابتعاده عن الطريق الصاعد إلى قمة الجبل، فكان كل شيء مهيأ للنوم بعد هذا التعب، والارهاق الذي أصيب به الشباب الذين ينحدرون من عوائل متنعمة بالثروة، والجاه.

***

أكملت أنثى العنكبوت نسج خيوط بيتها فكان ذاك البيت الذي يسد فتحة الكهف، والذي يستطيع أن يمنع العسس الذين يبحثون عنهم أن يجتازوه. وأكملت كذلك الحمامة البيضاء من انزال سبعة بيوض، و"الگف"[١] عليهن لتفقس عن فراخ صغار، وهذا سبب بمن جاء

(١) الگف: نوم الدجاجة على بيضها للتفقيس.

للبحث عنهم في مغادرة المكان دون النظر لما فيه. ونمت شجرة البلوط إلى الأعلى فأصبحت شجرة كثيرة الأغصان، وافرة الأوراق، والثمر، فأنحنت على فتحة الكهف. وكان الكلب بالوصيد منذ أن دخل الشبان السبعة الكهف.

وقتها هبت الريح، فاهتزت أغصان شجرة البلوط بإنسجام نباتي، تساقطت بتلات كثرة منها، ودخلت الكهف من فتحته المنحوتة بفعل الظواهر الطبيعة، واستقرت على الشباب النائمين. كان الشباب السبعة يبتسمون في نومهم. كانت ضحكاتهم تشبه ضحكة الموناليزا الشهيرة.

***

القسم الثاني

"استيقاظ"

حكى لهم الشيخ فرج الله الماء وردي، في بداية درسه لطلاب نيل رتبة الحكيم في المدرسة المستنصرية عن الفرق بين النوم إذ تفتح أبواب الذكريات ليصدر اللاوعي ما فيه من مخزون فتأتي أولا فرادى بعدها تنهال كالفضة ثم تستقيم كالثلج، وبين الموت:

- النوم هو موت وقتي، ليستريح فيه الجسد، ويرتاح الجهاز العصبي، والجسد، والروح، يبقيان متلازمان في الانسان، أو الحيوان، وحتى في النباتات، ولو انه لم تقم التجارب على ذلك، سوى ان العقل الباطن (اللاواعي) يبدأ بالنشاط، والاشتغال، والارتحال في عوالم هي للواقع قريبة فيزيح العفل الواعي عن طريقه، أما في الاستيقاظ فتكون العملية مغايرة.

وهكذا كان أبطال حكايتنا هذه، وما جرى لهم من أحداث في الكهف، وهو حدث النوم لفترة طويلة، لا أحلام، ولا شخير، ولا صوت سعال حتى، واستيقاظهم منها، وهم لا يعلمون الفترة التي قضوا فيها نائمين. فإذا كانوا بعد المطاردة الأولى ناموا في الكهف، ففي الثانية سينامون دائميا، حيث يكون الموت هو مغادرة الروح للجسد لتبقى هائمة مثل الطير حول الجسد، ولا تغادره إلى مكان بعيد عنه. وفي النوم تغادر الروح منطقة الوعي الحمراء إلى منطقة اللاوعي الخضراء، وتفتح أبواب الذاكرة غير المفتوحة، لتبدء الأحلام، والكوابيس بالانهيال مثل سيل عرم يأتي على الأخضر، واليابس.

انسان بلا ذاكرة، انسان بلا أجزان، ولا يمكن ان يعيش الانسان بلا حزن.

***

قال القصة خون، وهو يتحدث لرواد مقهى الحي بعد أن طوى الصفحة الصفراء التي كان يقرأ فيها الحكاية في الكتاب، وأغلق غلافه عليها:

- انتهينا بهذه المعلومة عما كان يحدث داخل الكهف، وتعاقب الفصول، والأعوام، في القسم الأوّل، وسنقدم القسم الثالث من حكايتنا، وهو أهم ما في هذه الحكاية من أحداث، وحوادث، وشخوص، وسنفهم قصدها بعد أن نهض الشباب السبعة من غفوتهم التي طالت يوما واحدا أو بعض يوم كما كانوا يظنون، أو ربما طالت أكثر من ثمانية قرون كما حدث بالفعل، وهذا ما نستنتجه من أحداثها. المهم بعد كل ذلك استيقظ الشباب من غفوتهم كما استيقظ النيام السبعة في القصة المعروفة بعد نومهم أكثر من ثلاث مئة عام، وهم يرددون مع أنفسهم "قام الشباب فغني بذكرهم يا بلادي". كانت رقابهم متشنجة، وظهورهم كالخشب المسند إلى الأرض، وقد خدرت مؤخراتهم، وفرغت بطونهم حتى قرقرت بصوت مسموع، وقذت عيونهم، فسدّ القذى نصف عيونهم، وظمأ لسانهم كظمأهم إلى الماء، وتخشب في فمهم، وارتخت عضلاتهم، وساد الصمت بينهم كأنه صمت القبور وقت ظهيرة يوم تموزي قائظ.

أخذ "القصة خون" شهيقا طويلا، وزفره للخارج بشدة، ثم تابع قوله:

- في هذا القسم ايها السادة المستمعين سيتغير الزمان، والمكان، والمدن، وشوارعها، وأزقتها، وما فيها، تتغير المطاردة، وسلاح

المطاردين أيضا، فالحياة بسيطة أما ناسها فهم ليسوا كذلك، وهم الفاعلين، والمتغيرين.

***

القسم الثالث

(١)
"نور"

كانت الريح ريحا صفصفا، والشجرة شجرة بعمر كبير، وورق شجرة البلوط ورقا في طريقه للاصفرار، فتصارعا فيما بينهم، وفازت الريح، فتناثر الورق وتساقط على الأرض، فاستيقظ الشباب السبعة من نومتهم التي دامت فترة لا يعرفون مقدارها حتى ان شيخ مادة الفلك، الشيخ البيروني، لا يعرف مقدارها لأنها خارج قدرته العلمية، التنبئية، وظنوا انهم ناموا ليوم أو بعض يوم، وكانت انفاسهم مثل موسيقى هادئة تعزف في هدأت الليل أو في وضح نهار المحبين. فركوا عيونهم، وهرشوا شعر رأسهم الطويل المغطى بعمائمهم، فكانوا غير متوازنين. حركوا أجسادهم إلى الجهات كافة ليطقطقوا عظامهم، ومفاصلها التي كادت غضاريفها أن تصدأ، ولا تتحرك، ويحركوا عضالات أجسادهم التي كادت أن تنحل من الجري، والتسلق إلى الكهف، والنوم، حتى بدأت دماء أجسادهم تتحرك بحركة بسيطة ثم بحركة سريعة، وكأن خيولا مجنونة تدفعها إلى أنحاء أجسادهم.

انتبهوا إلى ان ضوء الشمس قد دخل الكهف فأضاءه، وأشعته بدأت تلتهم رطوبته لتجففها، وان بيت العنكبوت قد أزيل كليا من الفتحة، وغابت خيوطه، والحمامة غير موجودة، ولا بيضها، لأنها طارت، والعش الذي بنته من العيدان، والطين، قد أزيل، فقد غادرته إلى جهة غير معلومة. وقد يبست شجرة البلوط التي نمت عند فتحة الكهف فتساقط عنها ورقها الأصفر على الأرض، وراحت تجرفه الرياح، وتنقله إلى اماكن بعيدة، وفقدت ثمارها البنية، الصلبة، ويبس جذعها حتى

نخر. والكلب يتمشى قرب فتحة الكهف، ويمط جسمه، وأطرافه، ويحرك فكيّ فمه، ويخرج لسانه، ويلعق شعره، وهو يتثاءب بين الحين، والآخر. كان كل شيء قد تغيّر، وتبدل، أو هكذا ظنوا، وهم مندهشون لايعرفون السبب لهذا التحول السريع بين أمسهم، ويومهم هذا، والذي طال بيت العنكبوت، والحمامة، وبيضها، وشجرة البلوط.

كانوا كمن يمارس طقسا حزينا، أو مملا جدا، وعيونهم كعيون ثور حزين، وكئيب. صمتهم صمت قاتل.

***

استمر الأرق، أو ما يشبه الأرق، في هذه الليلة عندما وضعت رأسي على زنديّ وأنا أسندهما على ركبتي رجلي القائمتين قرب جسمي، حتى الصباح فلم أنعم بدقيقة واحدة من النوم العادي، فقد كان يكفيني قبل هذه الليلة، أن أضع رأسي على الوسادة حتى أغط في نوم عميق مباشرة، فتساءلت، حدث نفسه "نور"، عن السبب في ذلك؟ فلم يجد جوابا شافيا يداري قلق نفسه اللائبة.

بعد دقائق من استيقاظهم أفصح كبيرهم "ريحان" بشفتين يابستين، عما يخالجه، وما زالت الدهشة واضحة على وجهه بعد أن تقلصت قسماته، وما زالت عمامته على رأسه لم تسقط، فقط كانت مائلة للخلف، وشبه متسخة. قال:

- علينا أن نجمع المال الذي بحوزتنا، ونضمه إلى بعضه، وينزل أحدنا متخفيا إلى السوق، ويشترى لنا طعاما، وماء، فقد جعنا، وعطشنا، بعد هذا المجهود الذي بذلناه في الجري، والتسلق، عليه أن بتشمم الأخبار.

جاءت كلماته هذه مثل ضربة قاصمة على رؤوسهم التي لم يغادرها النوم. سأل "ضياء"، وهو يعدل من جلسته، ومن وضع عمامته التي على رأسه:

- ما هو السبب الذي دعى العسس ان يلقوا القبض علينا؟ هل تغيروا من عسس عرب إلى عسس مغول؟

قال "نور"، وهو يلتفت نحو "قداح":

- اسمعوا لقد رأيت والد "قداح" بيد العسس عندما هربنا من الباب الخلفي لمركز عسس بغداد المدورة، كان حاسر الرأس، حافي القدمين، ممزق الجبة.

ابيضت شفتا "قداح" شحوبا، تعكرت صفحة وجهه، كان كمن تلقى ضربة شديدة دون سابق انذار، فصاح، وقد صرّ على أسنانه، وبلع دموعه بعد أن أصبحت كغيمة داكنة تغطي عين الشمس:

- ماذا تقول يا "نور"، أبي بيد عسس المغول؟

قال "نور" مؤكدا ما ذهب اليه:

- هذا ما شاهدته، وكنت أظن انك رأيته، كان بلا عمامة، وحافي القدمين، ممزق الجبة.

قال "ريحان" وهو ينزع عمامته، ويمسحها بكم قميصه:

- هل تظنون ان المغول وصلوا إلى بغداد المدورة، وأمسكوا بالخليفة، ورجاله؟

قال "نهار" وكأنه يتكلم بلسان أصدقائه:

- ربما !!!

انزوى "قداح" إلى نفسه، وراح يفكر بمصير والده، وكذلك بقية الشبان، فيما وافق الجميع على ما فكر به "ريحان" من جمع المال، وذهاب أحدهم إلى المدينة.

راح كل شاب يخرج من جيبه درهما فضيا، ويسلمه إلى "ريحان"، فتجمعت دراهما تكفي لشراء ما يحتاجونه، ولكلبهم الذي تبعهم، وزيادة. وأقرعوا بينهم فسقطت القرعة على "نور" فأخذ المال منهم، وهو متكدر الوجه، والوجوم ارتسم على محياه كغيمة سوداء تحجب الشمس عن الرؤية.

خرج بملابسه المتسخة، والمدماة، كأنها ثوب قصاب بيده سكين القصابة. خرج، وهو يتلفت يمنة، ويسرى، والكلب من ورائه يعدو، وهو يحرسه من حوادث الطريق. كانت الحياة قد دبت في الشوارع، والأزقة.

كان دخوله المدينة بعد ان انتهى من صوب الشامية من خلال عبوره جسر الحضارات، حيث يفضي هذا الجسر إلى هيكل البناية الكونكريتي الذي استخدمه ثوار تشرين[1] كقاعدة لهم وتوأمته مع بناية المطعم التركي في بغداد، وكان هذا الهيكل الكونكريتي بناية المحافظة القديمة التي هدّها الرتل الخامس أثناء الغزو، والاحتلال، الأمريكي على العراق.

المدينة ليست مدينته، لا الشوارع مثل شوارع بغداد المدورة، ولا البيوت كبيوت بغداد المدورة، ولا المحال تشبه محال بغداد المدورة، ولا ما يمشي، ويسير في الشوارع، والأزقة، و لا الناس، و لا ما يلبسون حتى يشبهون الذين في بغداد المدورة، انهما مدينتان مختلفتان.

(١) راجع روايتي (نخلة خوص يعفها كثيف).

كان كل شيء في هذه المدينة قد اختلف، وتغير، لا الشوارع هي شوارع بغداد المدورة، ولا محالها التجارية، ولا بضائعها، ولا ناسها، ولا ما يرتدون، ولا ما في شوارعها من عربات تسير، لا شيء يشبه مدينة بغداد المدورة. فبيوتها أصبحت من الطابوق، والاسمنت، وذات طابقين أو أكثر، وهناك بنايات أعلى من ذلك، وشوارعها أصبحت معبدة بالاسفلت، ولها أرصفة جانبية مرصوفة بالشتايگر[١]، والمقرنص الملون، تمشي فيها السيارات، والستوتات، والدراجات الهوائية، والنارية، وافتقدت للعربات التي تجرها الحيوانات إلا ما ندر، وصار التنقل بين المدن بواسطة السيارات، أو القطار، أو الطائرات، وكان لون سيارات الأجرة أصفرا فيما السيارات الخصوصية بشتى الألوان، والموديلات، وباتت للدولة، والحكومة، دوائرا خاصة يراجع فيها الناس لتمشية أمورهم. وكان الموظفون، والناس كافة، يرتدون ملابس تختلف عما يرتديه الشبان السبعة، وأبناء مجتمعهم، ولغتهم تختلف في النطق، وذات لكنة فيها تقعير، وقريبة من اللهجة البدوية.

عندما وصل "نور"، والكلب، إلى السوق بعد أن سأل الناس فأهدوه اليه، وكانوا يظنون انه من البدو الرحّل، وقد ترك إبله في الصحراء مع عائلته، وهم في بيوت شعر[٢]. وقف قرب المخبز المفتوحة أبوابه، وقد فرش الخبز على منضدة خشبية، وأخرج ماله من جيب جبته المبقعة بالدم اليابس، والذي أصبح كالوسخ يشبه جزرات الشوندر غير المقشر، ونقد صاحب المخبز ثمن الخبز، وأخذ الخبز، واستدار

(١) الشتايگر: وهو بلاط كبير ملون.
(٢) بيوت شعر: بيوت البدو وهي محيوكة من شعر الابل.

ليذهب، صاح صاحب المخبز به قائلا، والغضب باديا على محياه، والاندهاش، متجاهلا لهجته العربية التي هي قريبة من لغة البدو:

- ما هذه النقود؟

صعق "نور" من قول الخباز فرد عليه باسما:

- نقود؟

صاح الخباز به قائلا بعد أن راح يسترجع مجموعة الخبز التي كانت بيد الشاب:

- أعرف انها نقود، ولكن ليست نقودنا فمن أين جئت بها؟

ردّ الشاب، وقد تغير لون وجهه إلى اصفرار الخوف:

- هذه النقود لهذا البلد، أليست هذه مدينة عراقية؟

قال الخباز، وهو يناول صبيا مجموعة من الخبز:

- نعم هي مدينة عراقية، وهي في العراق من ضمن الدول العربية.

قال الشاب مرتبكا، وهو يعرض النقود في راحتي كفيه:

- وهذا المال هو مالها، وأنا أتعامل به لأني ابن هذه المدينة العراقية.

قال الخباز بعد أن مرت دقيقة من الصمت، وعلامات الاندهاش بادية على ملامح وجهه:

- أين تعاملت بهذا المال هل في دولتنا أم في دولة عربية ثانية؟

قال الشاب مترددا، محاولا أن لا يأتي على ذكر المغول في كلامه، وقد لفحته نسمة هواء ساخنة قادمة من غرفة المخبز:

- لحد يوم أمس أنا أتعامل به في مدينتي هذه.

قال الخباز باسما:

- اقرأ ما عليها من كتابات.

ردّ الشاب قائلا، وصفرة الخوف بادية على وجهه الذي طالت لحيته كثيرا فخللها بأصابعه عدة مرات:

- مكتوب عليها ضربت بخلافة العباسيين، وكتب عليها " لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، وهي من الذهب الخالص.

كانت هناك رقعة مستطيلة مثبتة على الحائط، وفيها صور ناس تتحرك، وتتكلم، وهي ملونة، وقد أدهشت الشاب هذه الشاشة، وما تعرضه.

أكمل الخباز سحب الخبز من الشاب، وأعاد له ماله، وكبح غضبه، ودفع به إلى خارج المخبز، وقال له بنبرة سخرية:

- هيا اذهب لا نريد مالكم، ولا ذهبكم.

تحرك الشاب، وهو في ريبة من الخباز. أسرع في سيره، وهو يتلفت إلى الخلف حيث يقف الخباز، وفي الوقت نفسه مر عليه مثل لمح البصر مشهد لشاب، وشابة، وهم في عناق، وقبلتهم امتدت حتى جاوزهما، والكلب يسير جنبه حتى ابتعد عنهما.

أسرع الخباز، وأخرج موبايله من جيبه، رآه الشاب من بعيد، ولم يعرف الموبابل، ولا رآه، وراح الخباز يتصل بمركز شرطة البلدة، وأخبرهم بأمر الشاب، ونقوده، فاسرعوا اليه، وحين وصلت المفرزة إلى الخباز أخبرهم عن الطريق الذي سلكه الشاب فأسرعوا يركضوا خلفه، وبعد دقائق شاهدوه، وعرفوه من زيه الذي وصفه الخباز لهم فألقوا القبض عليه.

***

في الطريق إلى سيارة الشرطة استطاع الشاب "نور" الهرب من الشرطي الممسك به، والحاكم بقوة على رسغ يده، وبحيلة صغيرة منه

استطاع الافلات من قبضته، فأطلق رجليه للريح، وركض هاربا لا يلوي على شيء في الشوارع العديدة بين الناس، والعربات، والسيارات، وصور المرشحين للبرلمان، وهم يبتسمون بملء أفواههم، إذ شق طريق وسط هذا التيه، وهو لا يعلم إلى أين تقوده قدماه حتى وصل إلى شارع الحبوبي الذي يمتلأ بالناس رجالا، ونساء، وأطفالا، كانوا في فوضى عارمة، وهم يراجعون الأطباء في عياداتهم الخاصة، حيث كانت لافتاتهم تملأ جدران البيوت، والمحال، فتلفت إلى اليمين، وإلى الشمال، وهو خائف يترقب، ورفع رأسه نحو السماء، وضيق فتحة عينيه ليتقى شعاع الشمس المتوهج، وقرر أطلاق ساقيه محاولا عبوره، وهو يتعثر بثيابه، يسقط، وينهض، والكلب يتبعه كظله، وفجأة دهسته سيارة صغيرة، صفراء اللون، وكانت واحدة من اختراعات العصر الحديث، وهي مخصصة للأجرة، في منتصف شارع الحبوبي فأردته وحيدا مضرجا بدمائه ليستمتع بإنسانيته المهدورة، وقد لفظ أنفاسه مباشرة، بعد أن تردد صدى صرخته بين جنبات المدينة.

تجمع الناس حول الشاب المدهوس الذي شع النور منه في منطقة دهسه في شارع الحبوبي، غارقا بدمائه، فكثر الكلام، والقيل، والقال، وعلت الضجة بينهم، وزادت طنين الهمهمات، وكل قال ما لديه أو ما كان يتصور ان ما قاله هو الحق، واليقين، فمن الناس من ظل يجادل في نوعية ملابسه، ومنهم من يسأل عن اسمه، وعن عنوانه، وتساءل البعض عمن يقرب له؟ فيما الكلب الذي وصل مع "نور" إلى المخبز، وسار خلفه حتى ألقت الشرطة القبض عليه، وهروبه من قبضة الشرطة، ودهسته السيارة، كان هذا الكلب يمرغ خطمه الأبيض بدماء "نور" الجارية على اسفلت الشارع، ويهرب عدوا نحو الشباب الآخرين

الذين في الكهف مارا من بين أرجل الناس المتجمهرين حول الجثة الملقاة في منتصف شارع الحبوبي، والألم الذي نفذ إلى قلبه يعتصره اعتصارا، ويغم نفسه التي أصبحت كالنفوس الانسانية غما.

كان الذي فكر به الكلب وقتها بعد أن هزّ ذيله عدة مرات، كما لو ان صوتا باطنيا قد سمعه، هو أن بخرج من أعراف، وأخلاق، نوعه، من العادات، والتقاليد، التي تربوا عليها، أن يكون أكثر ذكاء منهم، فيعدوا ليخبر الشبان الستة المتبقين في الكهف بما جرى، وحدث، وما آلت اليه أمور صاحبهم، حاملا علامة موت صديقهم الطالب السابع لإعلامهم بها من خلال الدم الذي صبغ الخطم، وبنباحه المتكرر، وهز الذيل إلى كل الجهات، ورفع القوائم، وخفضها.

***

كان الجو حارا، ورطبا أيضا، فيما ليس هناك أملا بولادة نسمه مريحة، وكانت الشمس مشرقة، والجثة ممدة على اسفلت الشارع الأسود، وعيناه كانت مفتوحتين، وكانت الناس قد تجمهروا حوله، وهم يتحدثون. رددت روحه قائلة:

- آه يا الهي لقد قتلتني هذه العربة الحديدية. وهي من اكتشافاتهم الحديثة التي لم نعرفها في بغداد المدورة، ولا في المدرسة، وكنت آمل أن أستفاد، ويستفاد جماعتي من الشباب، وكافة الناس منها.

بعدها تساءلت روحه، فيما كان جسده هادئا مثل نبض الميت، وهو ملقى في بركة من دمائه، ويسمع ما يدور من حديث الناس المتجمهرين حول جثته التي سكت كل نبض فيها حتى باتت باردة مثل الثلج:

- أين أنا؟ انها تجربة فريدة هذه التي أمر بها، وأنا ملقى على الأرض لا أتحرك، وهل هذا التجمع هو لالقاء القبض عليّ، واعادتي مرة ثانية

إلى السجن؟ ها هو الشرطي نفسه الذي هربت منه يصل إلى التجمع حولي، دنا مني، تحسس نبض رقبتي، حركني، قلبني، وعندما لم يجد أي حركة، أو نبضا في جسمي قال:

- انتهى كل شيء، لقد مات.

تذكرت وقتها حصالة نقودي المصنوعة من الخشب، وما فيها من دنانير ذهبية، ودراهم فضية، وتساءلت مع روحي: هل ظلت على حالها أم ان عسس المغول قد كسروها، وسرقوا ما فيها؟

***

خامره شعور مخيب للأمل انه ميت لا محالة، وكانت اليد القوية التي جست نبضه هي يد أحد الشرطة، عندها تساءل، وهو يتأمل الوجوه حوله، ورأسه على الأرض بعد أن اجتاحته رغبة في الحديث، وقد مرت عليه نسمة هواء باردة فاختض جسده عدة مرات، قال بحشرجة محتضر: هل سألتقي بأصحابي، ومعارفي، الذين سبقوني إلى عالمهم الثاني؟ وأجاب بسرعة البرق: انها رحلة كأي رحلة عادية، انتقال من عالم إلى عالم آخر مغاير للأوّل، وأول الاختلافات هو انه عالم هاديء، لا مشاكل فيه، ولا هم يحزنون. عند ذلك شرد إلى عتمة خانقة يعرف تفاصيلها جيدا.

***

قال أحد الناس المتجمهرين حول الجثة، وهو يشير باصبعه:

- ملابسه هي ملابس الناس في الزمن العباسي.

قال شخص آخر من المتجمهرين متسائلا:

- وكيف عرفت؟

ردّ قائلا بثقة:

- انا عندي دكتوراه بالزي العباسي، وهذا "البروش"(الدبوس) هو خاص بطلاب المدرسة المستنصرية يلبسه شيوخ، وطلاب المدرسة.

سأل شخص من المتجمهرين، وكان قصابا يتزنر بحزام جلدي عريض يضع سكينا عريضة فيه، فيما دشداشته مبقعة ببقع من الدم اليابس، بعد أن لم يقتنع بإجابة الدكتور:

- هل يعني هذا ان الميت قد جاءنا من العصر العباسي؟

قهقه بصوت عالٍ، وضحك الناس المتجمهرين حول الجثة.

قال الدكتور بلسان فصيح، وواضح:

- أنا لم أقل انه جاء الينا من العصر العباسي، أنا قلت زيّه الذي يرتديه هو زي كان يرتدية طلاب المدرسة المستنصرية وقتذاك، والدبوس هو رمز هذه المدرسة.

عند هذه الكلمة وصلت مفرزة الشرطة بقضيضها مع آمرها الضابط الذي يحمل مسدسا، وبيده عصا التبختر. قال الضابط الذي امتد ظله طولا قرب جثة الشاب، وبيده سيكارة روثمان، وأنفه ينفث الدخان الذي خنق جثة الميت، وقد وجه كلامه للشرطة الذين جاؤوا معه:

- هيا احملوه إلى السيارة لنأخذه إلى المركز، وهناك نكتب التقرير بوفاته دهسا.

قال دكتور الأزياء:

- ايها الرائد أرجو ان تنتبه لملابسه.

التفت الرائد بوجهه الغاضب من كلام الدكتور:

- وماذا في الملابس، انها ملابس رجل من البدو، أو رجل "كاولي"[١].

قال الشخص الثالث الذي ضحك على كلام الدكتور قبل قليل مبتسما:

- يقول الدكتور انه جاء الينا من العصر العباسي.

عاد الرائد إلى مكانه قبل أن يتحرك خطوتين:

- ماذا قلت يا دكتور؟

ردّ الدكتور:

- قلت لك انتبه إلى ملابسه فانها تشبه ملابس طلاب المدرسة المستنصرية في العصر العباسي، وهذا شيء غريب؟

قال الرائد متهكما:

- وما الغرابة في ذلك؟ فالبدو، والكاولية ما زالوا يلبسون ملابس ذات موضة قديمة، وهم أحرار فيما يلبسون.

هزّ الرائد يده علامة الاستهزاء، والامتعاض، من قول الدكتور، وسار نحو السيارة التي ركب فيها الشرطة، ووضعوا فيها الشاب المدهوس.

اتجه الرائد إلى جثة الشاب الممدة في حوض السيارة، فتش جيوبه فوجد فيها النقود الذهبية التي وصفها له الخباز، وفي الجيب الثاني وجد قطعة جلد يابس مكتوبا عليها بخط لم يستطع فكه إلا انه مشابه للخط العربي فقفل عائدا إلى جمهرة الناس الذي انحلت، وذهب كل منهم إلى سبيله، ولم يجد الدكتور، ولا شاهده في مرمى بصره، فرجع إلى السيارة، وركبها، وتحركت بهم.

---

(١) كاولي: غجري.

ظل الرائد متفكرا فيما قاله الدكتور، وملابس الشاب المدهوس، ونقوده، والرقعة الجلدية المكتوب فيها كلام لم يستطع فك حروفه، وأخبر مراجعه الأقدم منه بذلك فكلفوه بأن يبحث عن ذلك الدكتور.

***

فكر الكلب مع نفسه: هل كان يعتقد ان الحياة التي ذهب لها بعد وفاته تختلف عن الحياة التي غادرها، فترك أصدقائه، وغادرهم؟

الحياة ليست مثل بحيرة يتغير ما فيها في كل وقت، انما هي مثل شجرة كبيرة لا يتغير مكانها، وكانت حياة الشبان السبعة مثل الشجرة ليس فيها تغير.

***

في اليوم الثاني نشرت الجريدة المحلية خبرا مؤداه ان الشرطة عثرت على جثة شاب متوفي، يعتقد انه شاب بدوي، والتحقيقات مستمرة لمعرفة البيانات كافة.

لم تكن الصحف اليومية قد قرأها أحدهم، لأنهم لم يمروا على مكتبة تبيعها عند نزولهم للمدينة التي يزدحم فيها شارع الحبوبي بعد مقتلهم.

***

(٢)
"جميل"

أيقظ شعور، وأحاسيس، الشباب الستة، هذا الطقس الجميل، والرقيق، والهاديء، في منتصف أعلى الجبل، وقتذاك، وكانت شمسه قريبة من سمت السماء، وغابت أشرعة الغيم التي كانت شاحبة عن صفحتها اللازوردية، وغابت النجوم منها لأن النجوم لا ترى في وضح النهار الشمسي، وقد استيقظ كل شيء على الأرض، وعلى الجبال، من حيوانات، وأشجار، وشجيرات، ومزروعات صغيرة، وطيور، وحشرات، وجمادات، والجو يتضوع بعطر أزهار الليمون، وبرزت البراعم من الأغصان كحب الشباب على صفحة وجه صبية، ربيعية، وبدأت الأرض تكتسي بلون أخضر، فراحت الفراشات تنتقل من وردة إلى وردة، ومن زهرة إلى زهرة، وهي فرحة، فيما الكلب الأبيض، بآذانه الطويلة، أخبرهم عن دهس الشاب "نور"، ووفاته، من خلال حركات جسمه، واصطباغ خطمه بلون الدم، فاجتاحت الشباب الستة موجة من الصمت المعجون بالغضب، وظل الحزن، والألم البالغ، والمفجع ناشرا رداءه في الكهف، وقد بان ذلك على وجوههم الممصوصة خدودها، وتبادلوا النظرات التي خيم عليها الحزن، والألم.

***

عندما أتذكر أعوام شبابي، قال "جميل" مع نفسه، التي مرّت عليّ، أشعر بالذهول، والاندهاش لما فيها من كمية الحزن، والقلق، التي كانت لديّ.

كانت أعوام شبابي التي مرت قد كتبت بالحبر الصيني الأسود، حتى بتّ في منامي أصاب بالأرق، وقد استمر الأرق، أو ما يشبه الأرق، إلى هذه الليلة عند وضع راسي على زنديّ، وأنا أسندهما على ركبتي رجلي القائمتين قرب جسمي حتى الصباح، فلم أنعم بدقيقة واحدة من النوم الهاديء، فقد كان يكفيني أن أضع رأسي على الوسادة حتى أغط في نوم عميق مباشرة، فتساءلت، حدث نفسه "جميل"، عن السبب في ذلك فلم يجد جوابا شافيا حتى تحرك ذاهبا إلى المدينة للبحث عن الطعام، والماء، وقصة موت "نور"، وما زال السؤال بلا جواب.

- لقد غادر المكتبة العامة، وغادر مركز بغداد المدورة، وغادر الكهف، وها هو يغادرنا إلى المجهول.

هكذا قال لهم الكبير "ريحان" بعدها وضعهم في امتحان صعب، إذ طلب منهم أن يذهب أحدهم ليسأل عن "نور"، فأخذت الشاب الأوّل "جميل" الحماسة، وكانت هذه الحماسة قد بزغت في نفسه بعد روية أجالها، وتجربة استفادها، وحركة أحدثها، وهمامة نفس اضطرب فيها.

قال الشاب الكبير "ريحان" موجها كلامه إلى "جميل"، وهو ينصحه:

- انتبه لنفسك يا صديقي، كن حذرا، كي تعود لنا سالما، هناك ناس في المدينة.

ردّ الشاب قائلا، وهو يتهيأ للخروج من الكهف، والذهاب إلى المدينة:

- لا عليك سأعود بنبأ من المدينة يشرح قلوبنا جميعا.

هل كان "جميل" متأكدا من انه سيعود اليهم، وبحوزته بعض المعلومات عن قتل الشاب "نور"، وكذلك جلب الأكل، والماء؟

كانت صورة الطعام يعكسها خيال "جميل" النشط كما لو انه يجلس مع عائلته يتناول ما لذّ وطاب من الطعام فأفلت خيطا من لعابه من طرف فمه، مسحه بكم جبته الوسخ. كان قد شعر بأن وجهه يمتليء بالعرق، عندها ودّعوه جماعته الواحد تلو الآخر، كل يقبله على خديه، ثم خرج، وقد بان على وجوههم الشحوب، وتبدلت لون شفاههم.

بدا الكهف، وكأنهم يرونه لأوّل مرة، نظيفا من أي وسخ كان في أرضه عندما دخلوا فيه أوّل مرة، وفتحته هي الأخرى لا شيء فيها، والشمس تملأه من كل جهاته حتى في السقف فان نورها أخذ ينعكس على الجدران، والأرضية، وينعكس على السقف، أما حرارة جو الكهف فأصبحت لا تطاق، ووجوه الشباب قد عادت اليها حيويتها، فاصطبغت بلون يعكس لون الدم الجاري في العروق، وعادت الحيوية إلى أجسادهم الخاوية كذلك.

تذكر المروحة المصنوعة من سعف النخيل، والتي يجر حبلها أحد العبيد الذين شغّلهم والده للخدمة في بيتهم فهل بقيت تلك المروحة أم كسرها عسس المغول عند الهجوم على دارهم للبحث عن والده، ورموا أعوادها، وسعفها، وحبلها إلى الأرض فداستها أقدامهم، وسنابك خيلهم؟ هكذا تذكر "نهار" في ذلك الوقت الصعب تلك المروحة.

***

عندما خرج "جميل" من الكهف، وقبل أن يتحرك خطوة واحدة إلى وجهته أخرج منديلا أخضر اللون، وكبيرا، من أحد جيوب قميصه الداخلي الذي كان يلبسه تحت الجبة، وفرشه على عمامته خشية حرارة الشمس التي تطارده في هذا اليوم الذي أنارت فيه الكهف من الداخل.

كان "جميل" أجمل من صبية أوكرانية، تناسق بين أجزاء جسمه، بيضاء البشرة التي فيها بعض الاحمرار، وهو مثل ثلج سيبيريا، وشعره أشقر، ولون عينية كان بلون البحر الهاديء.

***

كان دخوله المدينة بعد ان انتهى من صوب الشامية من خلال عبوره جسر النصر، أقدم جسر في المدينة، حيث يفضي هذا الجسر إلى بهو البلدية، ومنه إلى شارع الحبوبي أعرق الشوارع فيها.

مرّ في أزقة، وشوارع، مهجورة، خالية من الناس إلا ما ندر، مجاميع من الأطفال يلعبون الاستغماية، وهناك محال تجارية، أو دكاكين صغيرة، قليلة الزبائن أو تخلو منهم، وبيوت مسدودة الأبواب، ومغلقة الشبابيك، على أهلها. كان يمشي حذرا، وهو يتلفت ذات اليمين، وذات الشمال، ومشيته غير متناسقة، وكأنه مطاردا من أحد، فيما الكلب يتبعه كظله.

المدينة ليست مدينته، لا الشوارع، ولا البيوت، ولا المحال، ولا ما يمشي، ويسير في الشوارع، والأزقة، من عجلات، وحيوانات، ولا الناس، ولا ما يلبسون حتى.

وهو يسير بارتباك في شارع متفرع من شارع الحبوبي لاحت له التفاتة دون ارادة منه إلى شباك أحد الدور، وكان شبه مفتوح، فرأى في طرف عينه امرأة، ورجل، وهم متعانقان، وشبه عاريين، على السرير.

كان المنديل الأخضر الكبير ما زال مفروشا على عمامته، وهو يرفرف كلما هبت نسمة ريح، وهو جائع بحيث سمع صوتا يأتي من جوفه مقرقرا، ولعابه بدأ يسيل عند شمه لرائحة سمك مقلي يأتي من أحد البيوت في الشارع.

كان يفكر كثيرا بـ "نور" الذي خرج، ولم يعد، لم يعرف ما حدث له، الكلب لا يمكن فهم حركاته إلا قليلا، وبالكاد، إلا ان الدم الموجود على محيط خطمه يشي بأن "نور" قد مات، هل مات، أم قتل؟ الكلب لا يخبر بذلك.

طرفت بعيني لا إراديا، وأشحت بصري قليلا عن رجل جاء يمشي، وهو ينظر لي، رأيته يدقق النظر في ملابسي، يتجاوزني، وهو يلتفت برأسه مدققا النظر فيّ حتى اصطدم بطفل كان يلعب في الشارع عندها أفاق، وسار معتدلا، وكأن شيئا لم يحث، هكذا خاطب "جميل" نفسه، وتابع مكلما نفسه اللائبة.

- منذ ساعة وأنا أسير في الشوارع دون جدوى، فأنا أسير بها دون أن أراها، أو أحس بها، فضاق صدري، فلا أنا تمكنت من الحصول على معلومات عن "نور"، ولا "نور" قد التقيت به، أو هو التقى بي، وما زال الكلب يتبعني خطمه الملطخ بالدماء. تراكم الاحساس بالحزن في داخلي لفقدان "نور"، وتعاظم الغضب في نفسي على الشرطة، وكان الخوف في نفسي يتزايد منهم، والزمن يجري، وهو لا يكترث لما حدث، ووقع، لا أبالية الزمن قهرتني، وزادت من وجعي، وألمي.

وتابع يقول:

- هل هناك أزمة بين الناس، والشرطة، أم ان كلمة أزمة كبيرة على هذه العلاقة؟ أم انها كانت ملائمة لتوصيف هذه العلاقة؟ ربما كانت هي كذلك.

وصل إلى شارع الحبوبي المكتظ بالمارة من الناس، والأشياء، إذ صممت شوارع هذه المدينة على شكل مستقيمات، تتوازى، وتتقاطع فيما بينها، ولا وجود لشارع ملتوي فيها، حتى الحديثة منها، وشارع

الحبوبي مثل شارع الاحتفالات في مدينة أور الأثرية. كان الشارع، وبالقرب من "فلكة"[١] الحبوبي عبقت رائحة الموت، فهناك جماهير تتجمع لتشييع أحد الموتى، وهذا التشييع يشبه تشيع موتى مدينتا.

كانت الشمس في طريقها للوصول إلى الغروب الذي يخفيها، إذ بدأ غروبها. وكانت عيون الناس تنظر له بشك، وريبة. كانت ملابسه هي ما تثير الناس كافة، أوقفه أحد الناس، وأخبره قائلا:

- اذا كنت تبحث عن صاحبك فقد دهسته سيارة، ومات، وجثته في مركز شرطة البلدة.

أخبره، وأكمل سيره إلى الأمام، وكانت أفكاره تدور حول الأمر نفسه.

فهم "جميل" من قول الرجل ان "نور" قد دهسته السيارة إلا انه لم يفهم كلمة "السيارة" سوى انها السيارة[٢] التي انقذت يوسف من البئر، وهي تنقذ الناس لا تقتلهم فكيف حدث ذلك؟ سأل نفسه فيما غاب الرجل عن بصره في زحمة الناس.

سمع أصواتا مثل قرقرة الرعد القاصف، فظل يتلفت ذات اليمين، وذات الشمال، وفجأة رأى بعض الشرطة يدخلون شارع الحبوبي، وهم يهرولون، وبيدهم شيء يخرج من أمام فوهته نارا تومض، وتنطقيء، وصوت كالرعد يتصاعد، ولما كان هو لم يعر اهتماما لما سمع، ورأى، أحس بحرارة في منطقة القلب، وسائل يسيل فيها، فتوقف كل شيء في البلعوم، حيث اخترقت اطلاقة مسدس ملابسه، وجلد، ولحم جسده. كان قد خضب قميصه الذي تحت الجبة بالدم، وسقط على الأرض، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. سكت كل شيء فيه، وكانت آخر صورة

(١) فلكة: هي الساحة التي تستدير حوله السيارات.
(٢) هنا السيارة بمعنى قافلة.

حملها في ذهنه للعالم لن براها ثانية بعد الأن، فيما كانت هناك مجموعة من العصافير قد أيقظها صوت الاطلاقة من هدوئها، وهي بين أغصان شجرة عالية.

***

هرع الناس إلى جثة القتيل المرمية على رصيف شارع الحبوبي، فيما الشرطة ابتعدوا كثيرا عن المنطقة التي وقع فيها "جميل" حثة هامدة، وكانوا يركضون خلف أحد المجرمين بإدخال المخدرات إلى العراق من دولة الأرجنتين.

- لقد قتل بطلقة طائشة من مسدس الشرطة.

هكذا قال أحد الناس المتجمهرين حول الجثة التي ساح دمها من القلب مباشرة، وكانت عيناه مفتوحتين على وسعهما، وساقه اليسرة ملتوية تحت جسده الممدد، ويده اليمنى كذلك. كان ينظر إلى ما يحدث حول جثته، وروحه تعي كل شيء.

***

عرف، وروحه تكلم نفسها همسا كأن حبالها الصوتية قد شاخت أو فقدت، اسم السلاح الذي بيد الشرطة، كان هو المسدس، فهل قتل "نور" بمثل هذا المسدس، وكأن أهل هذه المدينة يقتلون من يروا انه يرتدي مثل ما نرتديه من هذه الملابس، فهل ما زال العسس المغولي يبحث عنا، بعد أن ألقوا القبض علينا، ونحن في المكتبة العامة للمدينة، فهل كانت القراءة قد منعت؟ فلماذا لم يغلقوا المكتبة؟ ربما أرادوها مثل الفخ الذي يصطاد الحمام؟ وسجنونا في مركز شرطة بغداد المدورة إلا ان "ريحان" استطاع من فك سجننا فهربنا، وها نحن نقتل الواحد تلو الآخر، وقتلتا العسس، والشرطة، وهي تعرف بنا فبدأت

تقتلنا الواحد تلو الآخر بمخترعاتهم الحديثة، ونحن لا نأخذ الحيطة، والحذر، منهم، كما أوصانا كبيرنا "ريحان" وقت خروج "نور" للبحث عن الأكل، والشرب، وخروجي، فلم يعد إلى الكهف كما أنا لن أعود اليه مرة ثانية.

كانت السيارات، كما سموها، وهي عربات حديدية حالها حال العربات التي تجرها الحيوانات، فهل بدلوا، بين ليلة، وضحاها، تلك العربات الخشبية بهذه السيارات الحديدية الجميلة؟ كانت تملأ الشارع بدويها، والصوت الذي يخرج منها لتبعد الناس عن طريقها، ومن لا يؤتمر لصوتها فانه ميت لا محالة مثل "نور".

كان كل شيء صامتا سوى ضجة الناس المتجمهرين حول جثة "جميل" الذي كان أجمل من صبية أوكرانية في تناسق أجزاء جسمها، بيضاء البشرة فيها بعض الاحمرار، وهي مثل ثلج سيبيريا، وأنصع، وشعرها أشقر، ولون عينيها كان بلون البحر، فضاع كل شيء من هذا الجمال الذي كان يحبه شيخه الذي كان من الشاذين، وكان يثني عليه، بل كان دائم النظر له.

قال، وروحه تكلم نفسها بلا صوت:

- كان هذا الذي قتلوني به هو واحد من اختراعات العصر الحديث، فبدلا من السيف، والخنجر، والرمح، والنبال، كان هذا المسدس.

وتساءل مع روحه التي ما زالت تحوم حول جثته بهدوء لا يراها الناس:

- هل قتل "نور" بهذا السلاح، وكيف يقتل هذا المسدس؟ وأين هي السيوف، والخناجر، والرماح، والنبال؟ كيف أبدلوها بين ليلة،

وأخرى؟ اين الشوارع الأخرى؟ هل ابتعدت عن طريقي؟ هل هذا هو الشارع الوحيد الذي أريد عبوره؟

خامره شعور مخيب للأمل انه ميت لا محالة، عندها تساءل، وهو يتأمل وجوه الناس المتجمهرين حول جثته، ورأسه على الأرض بعد أن اجتاحته رغبة في الحديث، وقد مرت عليه نسمة هواء باردة فاختض جسده عدة مرات، قال بحشرجة محتضر: هل سألتقي بأصحابي، ومعارفي، الذين سبقوني إلى عالمهم الثاني؟ وأجاب بسرعة البرق: انها رحلة كأي رحلة عادية، انتقال من عالم إلى عالم آخر مغاير للأوّل، وأول الاختلافات هو انه عالم هاديء، لا مشاكل فيه، ولا هم يحزنون. عند ذاك شرد إلى عتمة خانقة يعرف تفاصيلها جيدا.

***

كان النهار في طريقه إلى الظلام، وكانت الشمس في درب الغروب إلا انها واضحة للعيان، وكل شيء قد تبدل، وتغير عند "نور"، و"جميل"، والشباب الباقين لم يروا هذه التغيرات، والتبدلات، التي حدثت بين ليلة، وضحاها.

***

كان الكلب ما زال يتبع الشاب حتى سقوطه على الأرض وقد سال دمه، وأتلف جبته، وسقطت عمامته من على رأسه، فيما فقد خفه الجلدي. عاد الكلب إلى الكهف وهو ملطخ القائمة اليمنى الأمامية بدم "جميل"، وقد استعاد الأخلاق نفسها، والسلوك ذاته، عندما سقط "نور" مضرجا بدمائه، وأخبر اصدقائه الشبان في الكهف.

وصل الكلب إلى الكهف، وهو منهك القوى، يلهث من العدو، وقد تدلى لسانه اعياء، حاملا على قائمته اليمنى آثار الموت، وكان لا يزال

ضوء النهار، الماثل إلى الغروب، ينير الكهف من الداخل، وكان الشباب الخمسة يجلسون في الكهف الذي بدأت الشمس تغادر السماء نحو الغروب، والجو بارد داخل الكهف، وخارجه، وكانت عمائم الشبان الخمسة قد طرحت أرضا، وقد جاعوا، وعطشوا، حتى لعابهم قد جف في أفواههم.

وقف الكلب أمام "ريحان"، وبعد أن التقط أنفاسه، مد قائمته اليمنى الأمامية إلى أمام فبرزت، والدم يصبغ شعرها الأبيض، عندها صاح "ريحان" بصحبه، وهو يقف مذعورا:

- لقد قتل "جميل" أيضا. هذا الشاب الجميل، لقد مات الجمال. وها هو غادر المكتبة، وغادر مركز عسس بغداد المدورة، وغادر الكهف، وغادر الحياة أيضا.

صمت الجميع مكرها، وكأنهم يجلسون في "چادر"[١] مأتم تعزية أحد الأعزاء، وسرت لغة الصمت في فضاء الكهف الذي بدأ الظلام يغزوه، كان الظلام خانقا، ورهيبا، وكل ينظر إلى الآخر، وساد الحزن بينهم، وتراكم شيئا فشيئا من مقتل "نور" إلى مقتل "جميل" ولم يعرفوا القادم الذي سيقتل.

غطت سحابة سوداء، ثقيلة من الكرى عيون الشباب الخمسة، وكلبهم الذي مدد قوائمه على الأرض، وغفا، وهو جاثم بالوصيد، والليل قد مدّ سدوله على الكون، وظهرت نجمة في السماء، وضاع القمر.

***

(١) چادر: وهو بيت وقتي مصنوع من قماش "الشادر" يبنى لاقامة مناسبة ما.

عند الفجر، وعند اسيقاظ الكائنات من نوم هادىء أو مضطرب، حيث تركت الطيور أعشاشها، والحشرات مستعمراتها، وجحورها، والحيوانات حضائرها، وتفتحت الأزهار، والورود، استيقظ الشباب الخمسة، وهم يتثاءبون، فركوا عيونهم غير المغسولة بكم جببهم، أزاحوا عنهم الكسل الذي عشش في أنحاء أجسادهم، ثم قام "ريحان" فتبعه الشبان الأربعة في النهوض، قال "ريحان" وهو يتثاءب:

- اليوم من الذي يشتري لنا الطعام، والماء، ويأتي بأخبار "جميل"؟ يجب أن يذهب أحدنا فمن يتبرع بالذهاب إلى المدينة القاتلة؟

صاح "حلو" الذي كان أحلى من عسل نحل البرسيم الصافي، وكان ذكيا في درس الفلسفة بأعلى صوته:

- أنا سأذهب، وآتيكم بأخبار "جميل"، وبالطعام، والماء.

قال "ريحان" وقد عبست تقاسيم وجهه:

- انتبه لنفسك، كن حذرا، ويقظا، ان الناس أمامك ينتظرون في الخارج.

وقبل أن يخرج من الكهف الذي دخلته اشعة الشمس الحامية، نهض الكلب من الوصيد، تمطى، تثاءب عدة مرات، مدّ لسانه فتدلى في الخارج، هز جسمه كله، وذيله عدة مرات، واستعد للخروج مع "حلو"، بعد أن فكر مع نفسه، وتساءل: هل يعتقد "جميل" ان الحياة التي ذهب لها بعد وفاته تختلف عن الحياة التي غادرها، فترك أصدقائه، وغادرهم؟

تبع الكلب "حلو" كظله الذي امتد على سطح الأرض، وأخذ يسير معه أنّى ذهب. تذكر طريق الوصول إلى المدينة، وتذكر كل معالمه، من

واجهات المحال، وأبواب الدور، والجامع، ورائحة الحمام العام، وهي رائحة واخزة، وباردة لغسيل الوسخ.

***

في اليوم الثاني نشرت الجريدة المحلية خبرا مؤداه ان الشرطة عثرت على جثة شاب متوفي، يعتقد انه شاب بدوي، والتحقيقات مستمرة لمعرفة البيانات كافة.

لم تكن الصحف اليومية قد قرأها أحدهم، لأنهم لم يمروا على مكتبة تبيعها عند نزولهم للمدينة التي يزدحم فيها شارع الحبوبي بعد مقتلهم.

***

(٣)
"حلو"

قال شيخي عن النوم، وأحواله، وحالاته، وموانعه:

- الأرق هو اضطراب في النوم يؤدي إلى صعوبة النوم أو صعوبة في الاستمرار فيه.

واستمر أرقي، أو ما يشبه الأرق، هذه الليلة منذ أن وضعت رأسي على زنديّ، وأنا أسندهما على ركبتي رجليّ القائمتين قرب جسمي حتى الصباح، فلم أنعم بدقيقة واحدة من النوم العادي الذي افتقد اليه مثل أصدقائي الشبان في الكهف فتمددوا على الأرض، وراحوا نائمين، وربما هم الآن يحلمون أحلاما وردية. كان يكفيني أن أضع رأسي على الوسادة حتى أغط في نوم عميق مباشرة، فتساءلت، حدّث الفتى الصابئي "حلو" نفسه ، عن السبب في ذلك، فلم يجد جوابا شافيا حتى تحرك ذاهبا إلى المدينة للبحث عن الطعام، والماء، وعن قصة مقتل "جميل"، وما زال السؤال بلا جواب، وسيذهب إلى المطعم.

قال مع نفسه، وما أحلى الكلام مع النفس فكر بذلك مع نفسه أيضا:

- من معاني اسمي هو "جمال"، و"جميل"، فهل جاء الدور لي لأتوفى كما توفي أصدقائي؟ أم أعود إلى الكهف منتصرا بما أعرف، وما أجلب من طعام، وماء؟

ودع "حلو" جماعته الشباب، وكأنه يودع نفسه. فسيان عنده ان كانت جماعته تودعه أو كان هو يود نفسه أو يودع جماعته، الوداع واقع لا محالة.

تساءل، وهو بين جماعته الشبان:

- أهكذا كتب علينا ان ننهي حياتنا، ونحن نودع بعضنا البعض؟

***

بدا للكلب البحث عن الطعام، والماء، أو بالأحرى القول انه جلب الطعام، والماء، يؤدي إلى الموت، فقد مات "نور"، ومات "جميل".

فكر الكلب مع نفسه الحيوانية: أرى ان هذا الفعل سيؤدي إلى موت الشباب كلهم طالما انهم مطلوبون من الشرطة فلا يخلص منه أحدا. الموت هو السبيل إلى أن يغادروا الحياة التي هي ليست حياتهم، أنا فقط أعرف ذلك، انهم من طينة غير طينة أبناء اليوم، انهم من زمن مضى، ومن جاء من زمان ماضي فليس له مكانا في دنيا أبناء هذا الزمان.

المدينة ليست مدينته، فلا تشبهها، لا رائحتها، ولا الشوارع، ولا البيوت، ولا المحال، ولا ما يمشي، ويدب في الشوارع، والأزقة، ولا الناس، ولا ما يلبسون حتى. فهل ملّ الناس طبيعة مدينتهم فغيروها إلى هذه الطبيعة بين ليلة وضحاها، أم كانت كطرفة عين كما قال الذي عنده علم من الكتاب (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)؟

ما زال "حلو" يغذ السير حذرا، متلفتا، وأنا أتبعه إلى المدينة، فهل نحن ذاهبون إلى الموت بأيدينا؟ أنا لا أستطيع أن أخبرهم بذلك، و ليس بإستطاعتي أن أمنعهم، فقد قتل صاحبي، وأنا أبحث عن كيفية قتله، أنا كذلك مشترك فيما يخططون، ويفعلون. كان الأجدر بهم ألا يدخلوا هذا الكهف الذي يمنحهم النوم طويلا دون مقابل، ولا ينهضون من نومهم إلا بعد سنين طويلة، هذا الكهف هو آلة زمن المستقبل التي يذهبون من خلالها إلى زمن مستقبل يرفضهم أهله، وها هو بدأ يرفضهم الواحد تلو الآخر، سيميتهم جميعا، حتى أنا سأموت لأنني تبعتهم فكان مصيري مع مصيرهم.

دخلنا، تابع الكلب الحديث مع نفسه، من طرف المدينة الغربي، من خلال العبور على جسر الزيتون الذي أفضى إلى غرفة التجارة، ومنها إلى شوارع، وأزقة المدينة المتنوعة.

كانت الشوارع في هذا الصباح خالية، فاليوم هو يوم الجمعة، والناس ما زالوا في أفرشتهم في هذا الصباح،.والنساء لم تدخل المطبخ بعد، والرجال لم ينهضوا لأداء صلاتهم لو كانوا يصلون، والأبناء لن يذهبوا إلى المدارس، وأنا و"حلو" فقط نحن الاثنان الذين يمشون في الشارع، ولم تسمع لنا حركة، لا كما قالت الفتاة لأمها عندما سمعا صوت ضرب على اسفلت الشارع، قالت لأمها:

- هذا صوت حمار، أو صوت حذاء جندي في طريقه للمعسكر.

هكذا ردت الفتاة على قول أمها أما نحن فلا صوت يظهر من مشيتنا في هذه الشوارع التي تبدو مهجورة، وكأن نازلة حلت في المدينة، فيما لمح من خلال ستارة أحدى النوافد رجل يعتلي جسد امرأة، وهم في مشهد حميمي افتقده "حلو" الآن.

***

تركت "حلو"، حدث الكلب نفسه، يقودني إلى المكان الذي أعرفه أكثر منه فهذه المرة الثالثة التي آتي بها إلى ذلك المكان، المدينة، وشوارعها التي يموت من يدخلها من الشباب، وكأنها منع عنهم الدخول مثل المدرسة المستنصرية التي كانت ممنوع علينا، نحن الكلاب، الدخول فيها حتى مع أصحابنا.

كنا عبرنا شوارعا، وأزقة كثيرة، إبتداء من شارع الجمهورية الذي يقع خلف بناية المحافظة التي هدمها الرتل الخامس بعد الغزو، والاحتلال

الأمريكي للعراق، ولم نهتد لأي محل لبيع الخبز. أما الماء فهو متوفر في كل مكان لكنا لم نشرب منه.

أنا أعرف الطريق إلى محل بيع الخبز إلا اني تركت "حلو" يقودنا حسب معرفته بالمدينة حتى وصلنا إلى شارع الحبوبي المكان الذي قتل فيه "نور"، و"جميل" صاحبي، فهل يقتل "حلو" كما قتل صاحبيه؟ هل تنتهي حياته كما ستنتهي حياة صحابته الشبان؟

***

أنا لا أعرف الطريق إلى المخبز، حدث "حلو" نفسه قائلا، ولا كيف أسأل على أصحابي المفقودين، والشارع هذا مليء بالناس، والحجارة، إذ سطرت الحجارة خارج بناية ما زالت في طور البناء، وكذلك أكوام الرمل، والحصو، والعمال، وهم في الطابق الثالث يعملون في بنائه، وفي الشارع كذلك عربات حديدية مصبوغة بألوان عديدة تسابق الريح، ولا حصان، أو حمار، يجرها فهل كان هذا التطور قد حدث بين يوم أمس، واليوم؟ وهل نمنا ليلة واحدة، أم مجموعة من الليالي، والنهارات؟ علي أن أخبر أصحابي بذلك، علينا أن نفكر بهذه المعضلة التي برزت لنا، وعلينا أن نتأكد جيدا من فترة نومنا، هل كانت ليلة واحدة أم عدة ليال؟

كانت سماء المدينة في بعض الأوقات تمر فيها مجموعة من الغيوم البيضاء، وهي منخفظة، ومتفرقة، بحواف تتلاشى في الفضاء دون أن تخلف شيئا، فيما على الأرض تسير ظلالها كالأرواح الهائمة في الفضاء، والتي جاءت من الماضي لتزور المدينة.

***

كان الكلب قد رأى، وهو يتبع الشاب "حلو"، مجموعة من أفراد الشرطة يسيرون في الشارع فتقدم إلى أن صار أمام "حلو"، وواجهه، وأخذ ينبح عاليا، عندها انتبه "حلو" إلى نباح الكلب المتصاعد فقال مع نفسه:

- لماذا هذا النباح؟ هل رأى شيئا يدفعه إلى النباح كما يفعل من هو من فصيلته الكلبية؟

تلفت ذات اليمين، وذات اليسار، فرأى مجموعة من الشرطة، وهم يحملون ما يشبه الأنابيب، ويسيرون بجنب الشارع فارتاب منهم، وشك في أمرهم فتذكر قول كبيرهم في أن ينتبهوا جيدا لما يحدث في شوارع المدينة فتوقف، عندها رآه أفراد الشرطة فارتابوا بملابسه، قال أحدهم:

- انظروا لهذا الشاب انه يلبس الملابس ذاتها التي يلبسها القتيلين.

توقفت مفرزة الشرطة، ووجهوا انظارهم للشاب "حلو"، والكلب الذي يرافقه. كان كما قال صاحبهم ان ملابسه تشبه ملابس القتيلين، فتساءلوا بينهم من أين جاء هؤلاء الشبان؟ ولماذا يرتدون مثل هذه الملابس؟ هل كانوا في الدولة العباسية كما قال الدكتور عن القتيل، وملابسه؟ وهل يكون ذلك صحيحا؟

***

انتبه الكلب إلى "حلو" وهو واقف بجنب الشارع، والمارة بدأوا يصلون إلى الشارع، والشرطة على مقربة منهم، الشاب واقف، والشرطة كذلك، كان "حلو" يفكر، وكان أفراد الشرطة يتساءلون بينهم، فهل كان فعل الأثنين هو ذاته؟ عندها رأى الكلب ان الشرطة تتجه لهم، فيما "حلو" بدأ يتراجع شيئا فشيئا فتراجع هو. كانت الشرطة تتقدم فيما

"حلو"، والكلب، في تراجع، الشرطة تتقدم، و"حلو"، والكلب، في تراجع عندها سلم "حلو" ساقيه إلى الريح، وركض فتبعه كلبه كما يتبع الصبي أمه.

***

ركض "حلو"، والكلب، في الشوارع، والأزقة، وكان الشرطة يركضون خلفهما ليمسكوا بهما ليقص عليهم الشاب قصته، وقصة القتيلين، إلا انهم ضاعوا من بصرهم فيما الشاب "حلو"، والكلب مازالوا يركضون حتى أحسا بان أنفاسهما قد تقطعت فتوقفا قليلا لتهدأ انفاسهما قليلا فشاهدا من بعيد شرطيا، وظنوا انه من مطارديهم فاستأنفوا الركض حتى وصلا إلى مطار الناصرية، ورأوا جسما كبيرا أبيض اللون بدأ في الحركة حتى اصطدمت عجلته السوداء الكبيرة برأس "حلو"، وهو يركض دون أن يلتفت، وأرداه قتيلا على الأرض مضرجا بدمائه إلا ان الجسم الكبير قد ارتفع في الجو، وكأن شيئا لم يكن، وكانت روح "حلو" تتبع ذلك الجسم الذي تصاعد في الجو ثم أصبح كالنقطة على ورقة بيضاء لمن يريد أن يراه.

في لحظة حدوث الضربة، وتصاعد حرارتها تذكر العربة التي اشتراها والده له، ولأخيه ليذهبوا بها للتنزه، وتساءل مع روحه: هل ظل حصانها الكميت في حضيرته أم أخذه جنود الاحتلال المغولي عندما هجموا على دارهم ليلقوا القبض عليه، أو على والده؟

***

خامره شعور مخيب للأمل انه ميت لا محالة، وكان الشيء الكبير، والصلب، هو الذي اصطدم به، عندها تساءل، وهو يتأمل الفضاء حوله من خلال العيون في رأسه المقطوع، والمرمي على الأرض بعد أن

اجتاحته رغبة في الحديث، وقد مرت عليه نسمة هواء باردة فاختض جسده عدة مرات، وهو بعيد عن الرأس المقطوع، قال بحشرجة محتضر: هل سألتقي بأصحابي الذين سبقوني إلى عالمهم الثاني؟ وأجاب بسرعة البرق: انها رحلة كأي رحلة عادية، انتقال من عالم إلى عالم آخر مغاير للأوّل، وأول الاختلافات هو انه عالم هاديء، لا مشاكل فيه، ولا هم يحزنون.

***

بعد دقائق قليلة تجمهر عمال المطار حول الجثة إلى كانت بلا رأس، والدم يخرج مما كان يدعى رقبة بغزارة، ساح على الأرض بسهولة، ويسر، أصبح بقعة كبيرة تحيط بالشاب، وكان الكلب قد أنهى للتو من تضميخ شعر طرفه الأمامي الأيسر بالدم الذي يسيل من رقبته التي فقدت الرأس ثم حرك ذيله، وعاد عدوا إلى الكهف إذ كان الشبان بانتظاره.

كيف يخبر الشباب في الكهف، والرأس غير موجود؟

***

قال أحد الرجال المتجمهرين حول الجثة الملقاة على بطنها:

- انظروا إلى ملابسه!!!

ردد آخر كان يرتدي بدلة عمل زرقاء، وقد جاء بعمامة الشاب من مكان بعيد رميت فيه:

- هذه عمامته، انظروا لها كيف انها تختلف عن عمائم شيوخنا السوداء، والبيضاء.

صاح رجل متسائلا:

- أين رأسه؟

قال رجل يضع على عينيه نظارة طبية:

- ابحثوا عن الرأس في الجوار.

قال الذي يرتدي بدلة العمل الزرقاء، وهو رئيس مجموعة عمال المطار:

- ربما بقي بين عجلات الطائرة.

قال ذو النظارات الطبية:

- سأتصل بإدارة المطار الذي تصل اليه الطائرة، وأخبرهم بالحادث ليفتشوا عن الرأس بين العجلات.

قال رجل ممن وقف ينظر إلى الشاب مقطوع الرأس:

- اتصل كذلك بالشرطة، واخبرهم بالحادث.

قال صاحب النظارة الطبية:

- هيا لنحمله بعيدا عن الـ (RAN WAY) فقد تأتي طائرة لتنزل، ونظفوا المدرج من الدم.

***

كان الكلب قد وصل إلى الكهف، والشمس قد اجتازت كبد السماء، وقد صفت صفحة السماء، وظهر لونها اللازوردي. كانت قائمته اليسرة قد تلطخ شعرها الأبيض بدم الشاب "حلو".

صاح "ريحان"، ونبض قلبه تتصاعد وتيرته من مكانه الذي يجلس فيه متربعا على عجيزته كالشبان الآخرين:

- الله أكبر، لقد قتل "حلو" هذا الذي أحلى من عسل نحل البرسيم الصافي، وكان ذكيا في درس الفلسفة فكيف يموت؟ ولماذا يموت؟ وعلى أي شيء يموت؟

خيم الوجوم على وجوه الشباب الأربعة، وكلبهم الخامس الذي جثى بالوصيد، وهو حزين على ما أصاب الشبان الثلاثة إلا ان "حلو" كان أكثرهم مأساة فقد فقد منه الرأس في مكان غير الشارع بآلة ذات حجم كبير.

***

في صبيحة اليوم الثاني، وعند طوالع الفجر التي تسبق انبلاج الضياء، وقد استيقظ الشبان من نوم قلق لم تغمض فيه جفونهم طيلة الليل، والظلمة في الكهف حالكة السواد كأن العيون عمياء لا تبصر، وهو يغرق في سكون تام لا يسمع فيه سوى صوت الصمت القاتل. وكانت بشرة وجوههم قد اتسخت كثيرا كما اتسخت أجسامهم، وملابسهم، وأسنانهم صارت بنية اللون إذ لم تعرف "المسواك"[١] طيلة هذه الفترة. وطيلة هذه الفترة لم يذوقوا طعم الأكل، ولا شربوا الماء، فكانت بطونهم خاوية، معدتهم فارغة من كل شيء، لم يدخل فيها شيئا سوى الهواء، وهواء الكهف ثقيلا، وفاسدا.

تبرع الشاب "ضياء" الذي هو أكثر ضياء من ضياء الشمس المشرقة، وأسطع نورا، وشاطرا في لعبة الشطرنج أن يذهب هو للمدينة. قال له الكبير"ريحان"، وهو يودعه، كما ودعه الشبان المتبقين:

- كن حذرا لما يجري من حولك، عليك أن تكون منتبها لنفسك، عليك أن تأتينا بأخبار أصدقائك الذين قتلوا، وتأتي لنا بالخبز، والماء.

قال "ضياء" وهو يعدل عمامته على رأسه:

- سأذهب، وأنا أعرف انني أذهب إلى حتفي.

---

(١) المسواك: أداة طبيعية لتنظيف الأسنان يؤخذ من جذور أو أغصان أشجار برية معينة تختلف من منطقة لأخرى، ففي البلاد العربية وآسيا يؤخذ من شجرة الأراك.

قال "نهار" وهو يربت على كتفه:

- تفاءل بالخير يا "ضياء" فأمامك ضياء كأسمك، توكل على الله، وسر، ولا تفكر بشيء.

رد "ضياء" قائلا، وهو ليس متأكدا من صحة قوله:

- لا بأس سأجرب، لكني لا أضمن عودتي لكم سالما.

***

وظل بلا رأس في أرض مطار المدينة، عندها فكر الكلب مع نفسه: هل كان يعتقد ان الحياة التي ذهب لها بعد وفاته تختلف عن الحياة التي غادرها، فترك أصدقائه، الذين هدّهم خبر وفاته، ومغادرته لهم.

***

في اليوم الثاني نشرت الجريدة المحلية خبرا مؤداه ان الشرطة عثرت على جثة شاب متوفي، يعتقد انه شاب بدوي، والتحقيقات مستمرة لمعرفة البيانات كافة.

لم تكن الصحف اليومية قد قرأها أحدهم، لأنهم لم يمروا على مكتبة تبيعها عند نزولهم للمدينة التي يزدحم فيها شارع الحبوبي بعد مقتلهم.

***

(٤)
"ضياء"

كان دخوله، والكلب الأبيض الشعر، المدينة بعد ان انتهى من صوب الشامية، وعبورهم جسر الحضارات، وميله، والكلب، إلى جهة اليسار، وهو يقول مع نفسه:

- ما صدمني فور وصولي إلى زقاق ضيق لا ينفذ لمكان مفتوح، هو انه ينتهي بباب خشبي قديم، وقد تقشر دهانه، وتكسرت بعض ألواحه، وسقطت بعض مساميره في أكثر من موضع.

تابع مع نفسي:

- لأدخل في هذا البيت المتروك لعليّ أجد كسرة خبز، وبعض الماء، أقوّت جسمي بهما، وأرتاح قليلا من المشي الحذر.

دفع أحد ظلفتيه، فسقطت على الأرض، وتلقفتها المياه الآسنة، فصعد رذاذه الكثير إلى وجهه، وملابسه، فتبللت، ودخل في عينيه، فأغمضهما بعض الوقت، فيما طارت مجموعة من الخفافيش الليلية السوداء، وضاعت في الفضاء.

***

كان الجسر يعج بالعربات الحديدية التي تسير، وهي تحمل بعض الناس، فلمح في المقعد الخلفي لاحدى العربات هذه التي تسير دون أن يجرها أي حيوان، شاب، وشابه، ترتدي ملابس بلون الدم، وهم في عناق حميمي لم يثر الشخص الجالس في الامام، ويمسك بيديه ما يشبه العجلة سوداء اللون.

***

- أرضية الزقاق لم تكن من الأرضيات الفاضحة التي ينمشي عليها، أو ان أحذيتنا، هكذا فكر مع نفسه، أقصد البابوج[١] الذي كنت أرتديه، لم يكن فاضحا لي، فهو لا يخرج صوتا ألبتة.

هكذا قال مع نفسه، وكانت المدينة ليست مدينته، ولا الشوارع، أو البيوت، أو المطاعم، أو المحال، أو ما يمشي، ويسير في الشوارع، والأزقة، أو الناس، أو ما يلبسون حتى.

***

كان الكلب يتبع "ضياء" كظله دون أن ينبح، ودون أن يحدث ضجة، فلم يصل له الرذاذ، ولم يتبلل، وكان مثله جائعا، وتعبا، حتى بات اللهاث ديدنه، وقد ضعف حتى باتت عظامه بارزه، لقد تعب هذا الكلب كثيرا، وهدّ حيله، فمنذ أربعة أيام، وهو يأتي إلى المدينة عدوا يتبع كل شاب ينزل إلى المدينة، ويعود إلى الكهف بدونه دون أن يأكل كسرة خبز، ولا ارتوى بقليل من الماء، ولا ارتاحت قوائمه من العدو بين الكهف، والمدينة، ذهابا، وإيابا، كأنه مكوك نول الحائك الذي لا يهدأ دقيقة واحدة.

***

كان البيت مهجورا من ساكنيه، خربة، ولا يعرف كم ظل مهجورا هكذا؟ وكانت المياه الآسنة تملأ غرفه المفتوحة أبوابها على مصراعيها، وكل مرافقه، والماء الصالح للشرب مقطوعا عنه، ولا يوجد ماء، فيما بعض أسلاك الكهرباء مقلوعة من أماكنها، وهي بلا أزرار، ولا مصابيح، ولا حتى مربوطة فيما بينها.

---

(١) البابوج: هو خف جلدي يلبسه رجل الدين، وهي فارسية الأصل.

دخل "ضياء" منهكا، وسرح طرفه في مشاهدة البيت من الداخل، وهو ينتقل من طابوقة وضعت في قاع المياه إلى أخرى، والكلب من خلفه يمشي في المياه الآسنة. كانت حيطان الدار قد نزع بعض طابوقها في مواضع عديدة، ونزع الجص من أماكن كثيرة في جدرانها، وتقشّر طلاء الجدران اللازوردي في مواضع كثيرة، وقد سقط سقف الدار في أكثر من مكان، وكان مبنيا بالقصب، والبواري، وجذوع الأشجار التي نخرها الدود، وزجاج نوافذها مكسر، وهناك بعض قطع الآثاث القديمة المحطمة، وبعض خرق الملابس الممزقة. ركام في كل مكان من كسر الطابوق، وبعض قطع الجص، وألواح خشبية مكسرة، وقطع حديدية متآكلة.

كانت الرائحة عفنة، ونسبة الرطوبة عالية جدا، وكان التنفس صعبا لهواء فاسد، وثقيل، وقد عطّل جهاز التنفس عند "ضياء"، وباتت حرقة حادة في القصبات الهوائية مما دفعه إلى أن يسعل مرارا، وباستمرار كالمصاب بمرض السعال الديكي، فشعر بالغثيان.

قال يحدث نفسه، وقد هدّه الجوع، والعطش، وانهكه التعب، فاصفر وجهه، وغارت عيونه، وذبلت خدوده:

- يجب أن أخرج من هذه الدار المهدمة، والفارغة، لا ماء صالح للشرب، والاغتسال، ولا أكل حتى. عليّ أن أسرع في الخروج منها، عليّ أن أترك هذه الخربة بأسرع وقت.

استدار إلى جهة باب الدار الذي توقفت فيها الحياة كليا، بعد ان انتهى من البحث في الغرف المشرعة الأبواب عن الأكل، وماء صالح للشرب، والاغتسال، وهو يتنقل على الطابوق المرمي في صحن الدار في المياه الآسنة، والكلب كذلك استدار، وهو يخوض في الماء، وقد تبللت

حوافره. نطّ ضفدع من الماء الآسن إلى الأعلى، وغطس فيه مرة أخرى. كان الباب قد ردّ دون أن يقفل لأنه لا قفل له فهو متروك من زمن طويل لا يمكن معرفته.

توقف "ضياء" ليسترد أنفاسه المتقطعة قليلا، فيما تجاوزه الكلب خطوات إلى الأمام، وهو يخوض في المياه الآسنة، وخرج من الباب الخشبي الذي كانت أحدى ظلفتية ساقطة في المياه الآسنة، والثانية معلقة بالآطار المنخور بواسطة مفصل حديدي واحد، وقد أصابه الصدأ، فيما المفصل الثاني غير موجود بعد أن نخرت مكانه حشرة الإرضة التي تأكل الخشب، وتتلفه.

كان المدخل الوحيد لهما هو هذا الباب المطروحة ظلفته في المياه الآسنة، وقد خرج الكلب منه عدوا دون أن تلامس أقدام أطرافه عتبته السفلية، فيما كان "ضياء" قريبا منه، وهو يتلفت يمنة، ويسرة، لا يعرف عن ماذا يبحث، وقد عرف منذ دخوله ان الدار لا يوجد فيها أكل، ولا شرب، ولا مكان للجلوس ليرتاح فيه قليلا.

أصبح الكلب خارج الدار في الزقاق، و"ضياء" داخله دون أن يعرف ان الموت يبعد عنه خطوات قليلة، وهو قادم من خارج الدار، فهل انتبه له؟ هل أخذ حذره؟ هل تعداه ليبقى حيا؟ هكذا حدث الكلب نفسه، ويعرف انه سيكون الشاهد الوحيد على موته بعد دقائق.

***

كان "ضياء"، وكذلك الشباب الستة الآخرين، منهم من مات، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا فهم إلى الآن يخرجون الواحد تلو الآخر فيسقط أحدهم ميتا ليأتي شاب آخر بعده فيموت، وهكذا. وأيضا كلبهم مثلهم، لا يعرفون ما الكهرباء، وما هو التيار، وكيف يعمل؟ وما

هي الفولتية، وما هو عملها؟ ولا المقاومة، وكيف تضيء المصابيح، وكيف تعمل الأجهزة الكهربائية؟ كل ذلك لم يعرفوه، إلا انهم ألتقوا به في هذه المدينة، وكان أوّل لقاء "لضياء" هو في هذه الدار القديمة، والمتروكة، المليئة بالمياه الآسنة كبركة مياه منسية.

كان التيار الكهربائي مقطوعا عن غرف، ومرافق، الدار، وقد قطع بواسطة (چينچ أوڤر Change over) الدار، أما في السلك الذي يأتي به من الأسلاك الخارجية فهو موجود، أي انه واصل لمنظومة الدار الرئيسية. وكانت هذه المنظومة قريبة من باب الدار، وان السلك السميك يدخل من فتحة جانبية عملت في الجدار تحت الاطار الخارجي للباب، وقد تقشر السلك السميك الذي يحمل التيار الكهربائي تحت الاطار، وقريبا من المسامير التي تثبت المفصل الحديدي بخشب الاطار الذي سقطت ظلفة الباب منه فتوصل التيار الكهربائي بالمفصل الحديدي، وعندما أراد "ضياء" عبور عتبة الباب إلى أرض الزقاق أمسك بيده الاطار ليساعده على العبور إلى أرض الزقاق التي كانت أعلى من أرضية الدار بنصف متر فوقعت يده على المفصل الحديدي، وكان يحمل التيار الكهربائي فصعق، ورفعته الصعقة إلى الأعلى، وخرّ إلى أرض الدار المليئة بالمياه الآسنة، وكانت النجوم، أو ما يشبهها، تسبح في سماء ناصعة البياض، وهي تسير بسرعة عالية حتى حصان الخليفة لا يستطيع اللحوق بها، دون أن تصطدم ببعضها فضرب رأسه بأرض الزقاق المبلط بالشتايگر الاسمنتي الملون، عندها اختض جسده عدة مرات متتالية ثم هدأ، وسكن، وقد خرجت الدماء من أنفه، وفمه، فيما كان الزقاق منيرا بنور الشمس الساطعة، وقد رمق

بعينين شبه مفتوحتين من مكانه صفحة السماء اللازوردية العالية، فتنهد بصوت مكتوم.

كان الكلب ينظر له، رآه، وهو يرتفع إلى الأعلى، ويعود إلى الأرض المليئة بالمياه الآسنة، رأى جسده يختض كثيرا ثم يسكت كل شيء فيه، ويبدأ أنفه، وفمه، باخراج الدماء، كل ذلك شاهده الكلب كما شاهد موت أصحابه السابقين، لقد كان شاهدا على موتهم، فهل يشهد موت المتبقين من الشباب؟

تساءل الكلب مع نفسه بهذه التساؤلات عن الماضي، وعن المستقبل، عن موت السابقين، والموت الذي ينتظر الشبان المتبقين. فيما كان "ضياء" يشهد موته بنفسه، كما شهد أصحابه السابقين موتهم. يشهد انه مسك عتبة الباب القريبة من المفصل، وقد توصل بالتيار الكهربائي، وهو لا يعلم بتوصيله، ولا يعرفه، وكان عليه أن يكون حذرا مما سمي كهرباء في هذه الدار القديمة، والخربة، ولم تكن في ذلك الزمن معروفة عندهم. وان عليه ألا يدخل هذه الدار منذ أن رأى ظلفة بابها، وهي مطروحة في المياه الآسنة، وأحد مفاصلها قد نزع من مكانه لأكل حشرة الإرضة ذلك المكان في خشب الاطار. وكان عليه ألا يدخل الزقاق المسدود من جهة واحدة، كان عليه ألا يفعل ذلك، إلا "ان المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين"[١]. عمامته ملقاة بعيدا، وقد خرج لسانه مثل الكلب في الجو الحار، وقد مال رأسه جانبا بعد أن انكفأ على بطنه في كف الأرض. شحب ضوء النهار أمام عينيه شيئا

(١) مثل شعبي.

فشيئا حتى انطفأ كليا. سكت صوته، لم يقو على الصراخ بعد ان نزف دما من فمه، وأنفه.

تذكر وقتها ما كان قد اشتراه من مخطوطات تفيده في كتابة اطروحته، وقد وضعها في غرفته في ديلاب خشبي، وتساءل مع روحه: هل ظلت كما وضعهتا أم الجنود المغول قد مزقوها، ورموها على الأرض فداستها أقدامهم، وسنابك خيلهم؟

***

خامره شعور مخيب للأمل انه ميت لا محالة، وكانت اليد القوية التي قلبته على ظهره هي يد أحد شباب الزقاق، عندها تساءل، وهو يتأمل السماء اللازوردية، ورأسه على أرض الزقاق بعد أن اجتاحته رغبة في الحديث، وقد مرت عليه نسمة هواء باردة فاختض جسده عدة مرات، قال بحشرجة محتضر:

- هل سألتقي بأصحابي الذين سبقوني إلى عالمهم الثاني؟

فأجاب بسرعة البرق:

- انها رحلة كأي رحلة عادية، انتقال من عالم إلى عالم آخر مغاير للأوّل، وأول الاختلافات هو انه عالم هاديء، لا مشاكل فيه، ولا هم يحزنون.

تغلغلت العتمة في كيانه كله فهامت روحه كحمامة بيضاء منطلقة في الفضاء، راحت مرفرفة بين أرواح من سبقوه، وهي تتنقل من مكان إلى مكان آخر في فضاء آخر بكل سهولة، ويسر. وشرد إلى عتمة خانقة يعرف تفاصيلها جيدا.

***

عدا الكلب بعيدا عن الزقاق بعد أن صبغ شعر قائمته الخلفية اليسرى بدم فم، وأنف "ضياء"، خرج منه، ودار في الأزقة، والشوارع الخلفية، ثم صعد طريق العودة للكهف دون أن ينتبه لما يحدث في طريقه. كان طريق العودة متنوع الأرضية بين اسفلتي، وترابي، وصخري. كان يعدو كالمطارد. وكان تفكيره منشغلا بالموتى الذين رأى موتهم، وكان شهيدا على ذلك، مسجلا بسجل ذاكرته الكلبية، فهو الشاهد الوحيد عليه، وهو الناقل خبره للشباب المتبقين في الكهف، وسيخبرهم بما حدث "لضياء"، وكيف توفى.

***

عرف الساكنون بالدور المجاورة للدار القديمة، والخربة. خرج أوّل ساكن في الدار المجاورة لهذه الدار، وقد رأى الكلب قد وصل في عدوه إلى منتصف الزقاق ثم بدأت الدور المجاورة تخرج ناسها من الرجال، والنساء، والبنين، والبنات، خرج الجميع ورأوا "ضياء" منكفئا على الأرض، نصف جسده الأعلى على أرض الزقاق، والنصف الآخر في الدار مغطى بالمياه الآسنة، فقام أحد الجيران بالاتصال بالشرطة الذين جاؤوا بسرعة، وعاينوا الشاب المقتول، فعرفوا أصله، وما زال الدكتور الذي قال بخبر ملابس العصر العباسي غائبا عن مركز شرطة البلدة، ولم يهتدوا إلى منزله، وما زالوا يبحثون عنه، فعنده الحقيقة كلها، أو جزء منها.

***

وصل الكلب بعد جهد، وهو يلهث، إلى الكهف، فقد كان يعرف طريق العودة، وكانت الشمس تطارده وهي في كبد السماء، والسماء زرقاء، صافية، لا غيوم، ولا سحاب، لا بيضاء، ولا سوداء، والريح

هادئة، والجو داخل الكهف مواتيا للراحة، والاستجمام، والشباب كل مع نفسه يتحدث بصوت خافت، غير مسموع من الآخرين.

وقف الكلب في فتحة الكهف لاهثا، ولسانه الذي أصبح بلون أشبه باللون الوردي من شدة العطش مادا اياه على فكه السفلي، بعد أن كان يفكر على طول الطريق مع نفسه: هل كان يعتقد ان الحياة التي ذهب لها بعد وفاته تختلف عن الحياة التي غادرها، فترك أصدقائه، وغادرهم؟

انتبه له كبير الشباب "ريحان"، وهو يصارع النوم، عندها قال بعد أن رأى قائمة الكلب الخلفية اليسرى، وقد اصطبغ شعرها الأبيض بلون الدم الخاثر فصاح بأعلى صوته الحاد، والمضطرب:

- لا حول، ولا قوة إلا بالله لقد مات "ضياء"!! وا أسفاه، مات الذي كان دائما يفوز بلعبة الشطرنج، مات الذي هو أكثر ضياء من ضياء الشمس المشرقة، وأسطع نورا منها.

عندها امتلأ الكهف بالوجوم، كان الكهف صامتا، وباردا، وشعر الشبان المتبقين بظلامه، وبموجة من السخط، والغيظ، اجتاحتهم جميعا، فيما الكلب أقعى حارجه، وهو ينظر إلى الشباب، وقد أخذهم الحزن في طريقه المستمر, فكانت الوجوه التي لم يمسها الماء منذ زمن بعيد قد اصفر لونها، وكدرت ملامحها، وباتت شفاهها يابسة، ولسانها الذي عقدته المفاجأة اليومية، ففي كل يوم تكون المفاجأة ذاتها، والخبر نفسه، والتفاصيل كما هي.

في هذه اللحظة داهم "قداح" تشنج حاد اخترق جميع أحشائه الداخلية، ومسك قويا في فخذه الأيسر، ولم يفك منه حتى عمل له "ريحان" مساجا لفخذه.

لم تكن النياحة هي فعل للرجال، ولا اللطم، ولا لبس السواد، بل هي للنساء، والدين ينهي عنها، فلم تسمع صوتهم، وهم ينوحون، ويلطمون، ولا لبسهم أصبح أسودا فليس لهم ملابس سوداء سوى ما يلبسونه، وهي جبة صفراء مطرزة، وشروال أبيض، وقميص أبيض أيضا، وهذه العمامة ذات الذؤابة الخلفية.

***

عندما عاينت الشرطة الجثة سحبوه إلى أرض الزقاق، وقلبوه، فرأو الدماء، و"الزباد"[١] مخلوطين بينهما، فالزباد الأبيض محمر بسبب الدم، والدم مبيضا بسبب الزباد، وكلاهما باين للعيان.

أعطى الضابط، آمر مفرزة الشرطة، لمعيته من الشرطة بأن يحملوه، ويضعوه في سيارة الشرطة، لنقله إلى المركز، ومن ثم إلى برادات الموتى في المستشفى العام مع جماعته.

كانت عينا الشاب "ضياء" تحدقان بآمر المفرزة فتبسم، وقال مع روحه التي ترى أرواح أصدقائه الشبان الذين سبقوه في الوفاة:

- كيف ستعلمون عنا أشياء اذا كنتم تقتلوننا دون ان تتحدثون معنا؟

عند ذلك شرد إلى عتمة خانقة يعرف تفاصيلها جيدا.

***

في اليوم الثاني نشرت الجريدة المحلية خبرا مؤداه ان الشرطة عثرت على جثة شاب متوفي، والتحقيقات مستمرة لمعرفة البيانات كافه.

لم تكن الصحف اليومية قد قرأها أحدهم، لأنهم لم يمروا على مكتبة تبيعها عند نزولهم للمدينة التي يزدحم فيها شارع الحبوبي بعد مقتلهم.

---

(١) الزباد: هو مثل رغوة الصابون تخرج من الفم في الحالات العصبية.

(٥)
"نهار"

هل الذي أراه اليوم هو حلم طاف بي أم انني طفت به؟ أو انه قد جرى لي، ولصحبي، في الواقع؟ بعد أن أمضيت ليلتي مسهدا، وقد أصابني الأرق القاتل. هكذا تساءلت، وأنا أفرك عيني لأذهب عنهما النعاس الذي قيدهما، وأحكم قياده.

أشرق هذا اليوم على مهل على الرغم من يرودته الشديدة، ومليء بالضباب الذي راح ينقشع شيئا فشيئا، وكان يملأ الفضاء القريب من الكهف الواقع في منتصف المسافة بين قاع الأرض، وقمة الجبل المحفور فيه، وتبخّر، وتبدد، تحت حرارة الشمس اللاهبة، واختفى الندى، وصفا الجو، وقد ترطبت صخور الجبل الجرداء، والمزروعة، وما فيه من أشجار، وأعشاب خضراء كاسية للأرض، وقد إمتلأت بقطرات الندى المختفية، والقليلة التي تسقط فتبتلعها الأرض الترابية، أو الرملية، أو تختفي بين الصخور دون كلام.

كانت فتحة الكهف ليست مثل أي باب له طول، وعرض، بل كان شبه دائري، قريبا من المستطيل، له نتوءات خارجة من حدوده، وفي الداخل كانت الشمس قد غادرته بحرارتها، وظل ضوؤها يملأ الكهف، والهواء منعشا، والجو مريحا.

قال كبيرهم "ريحان" وهو يسلك فمه بما تبقى من لعابه اللزج:

- علينا أن يذهب أحدنا لمعرفة كيف مات "ضياء"، وأن يأتي بالطعام، والماء.

سكت، وغرق في بحر من الصمت كما غرق بقية الشبان به، وهم اثنان فقط من الشبان، أما كلبهم فهو هو، لا زادَ، ولا نقص، وانما ضعف جسمه، وخرج لسانه من بين فكيه، وهو جالس في الوصيد مادا قوائمه إلى الأمام، ونظره متجه إلى داخل الكهف حيث يجلس ما بقي من الشباب.

قال "قداح" اليهودي، وهو يحني جسده إلى الأمام، ويعود به إلى الخلف، وهو جالس كمن يصلي عند ما كان يتصوره أبناء عمومه انه هيكل سليمان، وهو يصلي كذلك:

- في الثقافة العامة نقول ان المتوفي تبقى روحه تحوم حول جثمانه، وهذا الفضاء مليء بأرواح الذين سبقونا في الوفاة، أليس كذلك؟

فردّ عليه "ريحان" قائلا، وهو يمسح بكم جبته انفه الذي سال قليلا من السائل منه:

- هذا من الموروث السومري، انتقل الينا، وجيل بعد جيل توارثنا هذه المعلومة، ولا أعرف صدقها أو كذبها لكنها بقيت تدور بيننا خاصة عند النساء عاشقات الموروث بلا برهان أو دليل.

انتفض "نهار" في مكانه، وقال بعد أن قضى شطرا من الليل، وهو يفكر في انه سيتطوع للذهاب للمدينة، والبحث عن الشباب الميتين، ولجلب الطعام، والماء، حتى غلبه النوم:

- أنا لها... سوف أقوم بالمهمة، وسآتيكم بخبر من المدينة.

قال ذلك، وقد تطوع للقيام بالمهمة تلك، ثم أردف قائلا:

- سآتيكم بخبر وفاة "ضياء"، والشباب الآخرين، وسأبحث عن سوق المطاعم لأشتري الطعام، والماء.

كانت عينا " ريحان" تعكسان الرضى النفسي الذي أبداه "نهار" بما قال، وقرر:

- قلت أنا للمهمة.

في هذه اللحظة عكس خياله صورة للمائدة التي مدت أمامه، وأمام أقربائه، وفيها أنواع الخمور، ومنها الخمر الأندريني.

تابع قوله، وهو يبعد عن ذاكرته تلك الصورة التي علقت فيها من الماضي:

- وإلا سأموت في سبيل ذلك شهيدا.

انتبه الشباب إلى الكلمة، كانت "شهيد" أوّل مرة تنطق هنا في الكهف بين الشباب السبعة، وهي كلمة اسلامية، وقد سمعها الكلب لأوّل مرة فهل يتوفى هو ليذهب شهيدا مثل الشباب الأخرين الذين سبقوه؟ وكان الشاب الباقي يجلس صامتا، وكأن الأمر لا يعنيه، وانما هو يعنيه أصلا، وهو يعرف بأنه يعنيه، وكان كئيبا، ونظرته يائسة. والكلب يتسمع إلى هذا الحوار، وهو ما زال يلهث، وينظر أمامه إلى الشابين المتحاورين، نبح بصوت خافت لكنه نباح غليض، ومجهد. سمع "ريحان" يقول "لنهار":

- هيا انهض، اذهب راشدا، وتوكل على الله.

قام "ريحان" من مجلسه، وأنهض "نهار" حتى استوى واقفا، وهزه من كتفيه، وودعه، وهو يأخذه بالأحضان، ويقبله بشفاه يابسة على خديه الممصوصين كقربة خالية من الماء.

يضمه الشاب الآخر الذي كان منزويا على نفسه كلهانة[١] ملتفة على أوراقها الخضراء إلى صدره، فيما الكبير يأخذ بكف يده، ويظل ممسكا بها:

- انتبه لنفسك، واحذر كثيرا فالموت لنا بالمرصاد، وهناك ناس في المدينة.

هكذا أوصاه كبيرهم، ولم يعد يحفظ من الوصايا سوى هذه العبارة التي بهت لونها، وعادت لا تسمن من جوع.

***

كان دخول الشاب، وتابعه الكلب (وفاء) بعد أن انتهوا من صوب الشامية من خلال عبورهم الجسر الخشبي المصمم لعبور المشاة، والذي يفضي إلى سينما الأندلس الشتوي فتاهوا بين الشوارع، والأزقة، وقد ابتعدوا عن القيصرية لزحمة الناس فيها.

كان قد رأى هو، والكلب، شابين، فتى، وفتاة، وقد لف الفتى يده حول خصر الفتاة، ومالت الفتاة برأسها على متن الفتى، وهم يتمشون على الجسر هذا الذي تحركه موجات النهر الخفيفة يمنة، ويسرة.

المدينة ليست مدينته، ولا أجوائها، أو رائحتها، ولا الشوارع، ولا البيوت، ولا المحال، ولا ما يمشي، ويسير في الشوارع، والأزقة، ولا الناس، ولا ما يلبسون حتى كل شيء قد تبدل، وتغير.

كان الكلب يقوده في شوارع المدينة، وأزقتها، المغسولة بالشمس، ولم يعرفوا شيئا عن أسباب وفاة الشباب، وأين هم الآن، أو يجدوا

(١) لهانة: .بتشديد الهاء .هي الملفوف. نوع من الخضار.

محلا لبيع الأكل، والماء، فقد كان هذا اليوم هو يوم جمعة، والناس في بيوتهم.

وصلوا إلى شارع الحبوبي، فرأوا مجموعة من الشرطة، وهم يقفون قرب العربة الحديدية فعادوا أدراجهم ركضا، "نهار" والكلب، انتبهت لهم الشرطة فطاردوهما، وصل "نهار" والكلب إلى باب حديدي كبير، وهو مفتوح على مصراعيه فدخلوا منه، وهم يركضون، فاذا بباب خشبي أخر أمامهم مغلق، وبالسرعة ذاتها التي كانوا بركضون فيها اندفعوا بقوة الزخم فدفعوا الباب الخشبي، ودخلا في مكان مظلم حسبوه كهفا، وهم يركضون، فقطع ركض "نهار" جدارا كان واطئا يفصل القاعة التي دخلوها إلى نصفين، وحسبوها كهفا، فكبى "نهار" على الجدار الفاصل، وانقلب جسمه رأسا على عقب، فسقط في النصف الثاني من القاعة، الكهف، فارتطم رأسه بالأرض المعبدة بالكاشي فانتقل إلى العالم الثاني، وهو في ظلام هذا المكان، بعد ان خرج مخه من جمجمته المفتوحة بأثر الوقعة، والارتطام. أنيرت أضوية القاعة فتبين للكلب الذي كان يتبع "نهار" انهم داخل قاعة كبيرة، وكانت إنارة القاعة غير مضاءة، والفيلم كان يعرض إلا ان الشاب "نهار" لم يكن منتبه لما يحدث، فارتطم بالسياج الذي يفصل منطقة الجلوس بتذاكر بسعر أربعين فلسا عن منطقة الجلوس بتذاكر بسعر سبعين فلسا، وكان ارتفاع السياج حوالي مترا واحدا.

كانت جدران السينما من الداخل مزدانة يلوحات الأعلانات عن الأفلام التي عرضت، والتي لم تعرض بعد، وهي تحمل صور الممثلات الجميلات، والممثلين، فلم يرها الشاب عند دخوله.

تجمهر الناس الموجودين في المكانين على جثة "نهار" المتوفي بإرتطامه بالسياج الفاصل. كان قد فغر فاهه، وشقت جمجمته، ونزل الدم سيولا من رأسه، فرأى كما يرى النائم ان النور قد غلب الظلمة، فتوهج في عينيه شعاع ساطع، والنظارة قد أحاطوا به، وبدأ اللغط يعلو على ألسنة النظارة، كل يدلي بما يعتقده، ويظنه، ويراه القول الفصل، فمنهم من قال بأنه بدوي قد دخل السينما، وقد أثرت فيه قصة الفيلم فانتحر. ومنهم من قال بدوي أعجب بجمال الممثلة انجيلا جولي فركض ليقبلها فارتطم بالسياج، وتوفي. ومنهم من قال، وقال، وقال، إلا انه قضى نحبه بعد أن هرب من الشرطة، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا، فقد أصروا على البحث عن سبب وفاة الشباب، وأين هم، وعلى الحصول على الطعام، والماء؟

تذكرت روحه الهائمة فوق جثمانه الرسم المعلق على جدار غرفته، والذي رسمه أحد تلاميذ الرسام العراقي يحيى الواسطي، وتساءلت روحه:

- هل ظل معلقا على الجدار أم ان جنود المغول نزعته، ورمته على الأرض فداسته أقدام الرجال، وسنابك الخيل المغولية؟

لم يجب على هذا السؤال بل خامره شعور مخيب للأمل انه ميت لا محالة، وكانت اليد القوية التي قلبته على ظهره هي يد أحد النظارة، عندها تساءل، وهو يتأمل سقف القاعة، ورأسه على أرضها بعد أن اجتاحته رغبة في الحديث، وقد مرت عليه نسمة هواء باردة فاختض جسده عدة مرات، قال بحشرجة محتضر:

- هل سألتقي بأصحابي الذين سبقوني إلى عالمهم الثاني؟

أجاب بسرعة البرق:

- انها رحلة كأي رحلة عادية، انتقال من عالم إلى عالم آخر مغاير للأوّل، وأوّل الاختلافات هو انه عالم هاديء، لا مشاكل فيه، ولا هم يحزنون.

***

أخبر مدير السينما مركز شرطة البلدة بما حدث، وجرى، في دار السينما، فهرعوا إلى الدار أسرع من الضوء، وهو ينتقل في الفضاء، وبكامل عدتهم الحربية، وآمر مفرزتهم يمني النفس بالحصول على كافة المعلومات عن هؤلاء الشبان، وصلوا لدار السينما، وإلى القاعة التي أنيرت كاملا، وأنهوا عرض الفيلم فضج بعض النظارة، وتصاعدت منهم صيحات استهجان، وتذمّر، وراحوا يرددون اهزوجة معروفة في المدينة:

- أعور، هي..هي.. أعور، أعور يگل لأعور خل نشتري وزْوزْ، وزْوزْ طلع خربان، هذا نصيب العوران[1].

وصاح واحد من النظارة بمط حرف الواو:

- أعور.

وتعالى صياح النظارة الذين حرموا رؤية الجميلة انجيلا جولي، ومتابعة قصة الفيلم.

صور المصور الذي قدم مع مفرزة الشرطة لقطات لمكان الحادث، وجثة الشاب، وللوضع الذي توفي فيه، وللجدار الفاصل الذي صده فانقلب على رأسه للجهة الثانية، منطقة النظارة بتذاكر أربعين فلسا.

---

(١) اهزوجة يرددها الصغار عندما ينقطع عرض الفيلم في السينما. يگل: يقول. خل: دعنا. وزور: مسدس.

خرج آمر المفرزة بعد ان أوصى معيته من الشرطة بأن ينقلوا الجثة إلى السيارة، ثم خرج مدير السينما بعد أن طمأن النظارة بأنهم سيعيدون عرض الفيلم من جديد. عندها سكت صوت النظارة، وترديدهم اهزوجة الأعور، وعادوا إلى كراسيهم، فأعيد اطفاء الأضوية في القاعة، وأعيد تشغيل الفيلم مرة ثانية، وظهرت أنجيلا جولي لهم.

***

ظل الكلب مختبأ تحت كراسي السينما، حتى انتهى عرض الفيلم، وخرج جميع النظارة من قاعة دار السينما، وهم يطرون جمال الممثلة، وقبلاتها الحارة، فخرج من مخبأه، واتجه إلى المكان الذي ارتطم به الشاب "نهار"، وبحث عن شيء يأخذه إلى الكهف، فوجد قسما من مخ الشاب، وحملة بين أسنانه، واستدار، وعدا، حتى خرج من القاعة، ودار السينما، وراح يعدوا متجها صوب الكهف، فيما الشمس تتابعه بأشعتها الذهبية الحارة، وهي في طريقها للغروب.

***

كان الطريق قد أصبح طويلا لشعور الكلب بالتعب، والانهاك، فالأزقة، والشوارع، وكل المحال المفتوحة على مصراعيها في بعض الشوارع تعرض بضاعتها المتنوعة غير المعروفة للشاب، ولا للكلب، وتبيع كل شيء، ورائحة السمك، والثوم، والمخللات، تفوح منها. وكان الناس يتجمهرون عليها للتسوق، وشراء ما يحتاجونه، والكلب ما زال يعدو، وأسنانه تمسك بجزء من مخ الشاب "نهار" الذي جاء به من قاعة دار السينما التي ذكرها تقرير الشرطة بأنها دار سينما الاندلس، وهو جائع، عطشان، والفكرة التي شغلت باله تلك اللحظة هي: هل كان يعتقد ان الحياة التي ذهب إليها الشاب بعد وفاته تختلف عن

الحياة التي غادرها، فترك أهله، وأصدقائه، وخلانه، وغادرهم، وهي أسعد من حياته هذه؟

***

كان يبث من دار سينما الاندلس أغنية كوكب الشرق أم كلثوم "هذه ليلتي وحلم حياتي... بين ماض من الزمان وآت" فتساءل الكلب مع نفسه، وهو يخرج راكضا من دار السينما، وروادها مندهشين من وجوده فيها، عما إذا كان بقية الشباب يريدون أن تكون زيارتهم للمدينة هي زيارتهم الأخيرة، وان ليلة خروجهم للبحث عن الشباب المتوفين، والأكل، والماء، كذلك، هي ليلتهم الأخيرة، وهي حلم حياتهم التي يقف فاصلا بين الماضي، والمستقبل.

كانت الأيام، النهارات، والليالي، تجري كجريان الماء في النهر، سهلة، يسيرة، لا يمنعها مانع، ولا يعيقها عائق، ولا يصدها صاد، والشباب ينتقلون من زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، كالفراشات، وهي تنتقل من زهرة إلى أخرى. كانوا يحلمون بما هو أرقى مما هم عليه في الكتابة، والتأليف، بكل ما يخدم توجههم الدراسي.

***

كانت جثث الشبان المتوفين مكدسة في ثلاجة الموتى كوديعة إستأمنوا الثلاجة عليها، والشرطة حائرة في زيهم هذا الذي يشبه الزي البدوي بعد أن فجر الدكتور قنبلته عن الملابس العباسية، وغاب، ولم يعثروا عليه.

تساءلوا:

- هل ان هذا الشاب هو الأخير في هذه الزمرة التي قدمت إلى المدينة، وتوفيت فيها؟ أم ان هناك شبابا آخرين سيأتون بعده؟

ظل هذا السؤال مفتوحا كالتقرير الذي كتبه الضابط آمر مركز البلدة هو الآخر مفتوحا، ولم يغلق لاستقبال الآتي من حوادث موت الشباب.

***

في اليوم الثاني نشرت الجريدة المحلية خبرا مؤداه ان الشرطة عثرت على جثة شاب متوفي، يعتقد انه شاب بدوي، والتحقيقات مستمرة لمعرفة البيانات كافة.

لم تكن الصحف اليومية قد قرأها أحدهم، لأنهم لم يمروا على مكتبة تبيعها عند نزولهم للمدينة التي يزدحم فيها شارع الحبوبي بعد مقتلهم.

***

(٦)
"قداح"

الهواء خارج الكهف لم يهدأ لحظة واحدة منذ الساعات الأولى من الليل، وخمد فجأة قبل لحظات من الفجر، وساد كل شيء في الجوار سكون مطبق، صامت، وهاديء، فخدر كل شيء في الفضاء الذي بدأت فضية لونه تنبلج، تظهر للعلن، وكأنها تعلن عن نفسها للناس، وبدأت اشعاعات الشمس تأتي لا راد لها.

نهض الشابان الواحد تلو الآخر من نومهما بتكاسل، بدأ التمطي منهما، كان الوهن قد وجد طريقه إلى بدنيهما، وقد تخدرا من الكرى كليا، فيما طعم المرارة قد سال من أفواههما. حركوا عضلاتهما، طقطقوا عظامهما، لووا ظهورهما، عندها بدأ يومهما بلا أكل، ولا ماء، كان يوما عاديا يمر عليهما، وعلى "ريحان"، والكلب الذي بالوصيد. فالنهر، ولا يعرف ان اسمه نهر الفرات، وليس دجلة، يأخذ كل عام مجموعة من الضحايا له، وهذا الغريق ضحية جديدة للنهر الجاري.

كان وجه "قداح" ساكنا، مطمئنا، لا شيء يعكر صفو خديه اللاتي مصهما الجوع، والعطش، وبعض التعب، والابتعاد عن الأهل، والخلان. تذكر فراشه الوثير، ولحافه الدافيء، وخزانة ملابسه الخشبية الجديدة.

***

كان دخول الشاب، وتابعه الكلب (وفاء)، وهو يلهث، بعد أن انتهوا من صوب الشامية، فعبروا جسر السريع الكونكريتي، والذي يفضي إلى بداية شارع الحبوبي من الشرق.

المدينة ليست مدينته، و لا الرائحة المنبعثة في الفضاء هي رائحتها، ولا الشوارع، و لا البيوت، ولا المحال، و لا ما يمشي، ويسير في الشوارع، والأزقة، ولا الناس، ولا ما يلبسون حتى.

كل ابناء المدينة يعرفون متى أنشيء شارع الحبوبي الذي يشق الجانب القديم من المدينة، وماذا كان يسمى، وكيف أصبح يدعى بهذا الاسم، وهو موازٍ لنهر الفرات، والناس كانت تعبر النهر من منطقة جانبه الذي تقع فيها بناية المحافظة القديمة التي هدّها الرتل الخامس أثناء الغزو الأمريكي كما حدث لبغداد المدورة عند الغزو المغولي، إلى الجانب الثاني الذي تقع فيه محطة القطار. هذا النهر يشطر المدينة إلى شطرين، الشطر الذي تقع فيه محطة القطار، والشطر الآخر الذي يقع فيه شارع الحبوبي، والأحياء السكنية القديمة منذ انشائها، وفيها "عگد الهوى"، وكذلك نهر شطيط، والهولندي[١]، إلى منطقة السوق العام للمدينة، ويربط بين الشطرين أربعة جسور، وخامس خشبي.

ان ما سرق بصرهم من سيطرتهم عليه هو مرأى شاب، وشابة، وقد وقفا في حافة منزوية من الجسر، وهم متلاسقان من الأمام، وأيديهما ملتفة على أجساد بعضهما، فيما راحت شفاههما بعراك في قبلة لم يروها سابقا، ولم يجربوها حتى.

(١) نهر الهولندي: هو مشروع تابع لوزارة الموارد المائية العراقية، وهو مبزل رئيس يقوم بجمع مياه شبكة المبازل للمشاريع الزراعية ومنع خلطها بمياه نهري دجلة والفرات، وتأمين نقلها إلى شط البصرة ثم الخليج العربي، وقد تمت المباشرة في إنشاء المصب العام من قبل الشركة الهولندية، ولهذا سمي بشط الهولندي

تقع على الجانب الشمالي للنهر دور تسكنها العوائل الثرية، وفيه دور العرض السينمائي الأربعة، والجانب الجنوبي له كانت منطقة بساتين حتى السبعينيات من القرن العشرين فأنشأت فيه أحياء سكنية جديدة.

رأى "قداح" عند عبوره النهر من فوق جسر السريع ان شاطئه الشمالي يكتظ بالناس، ولم يلتفت لأي شيء في النهر، وانما الجميع منخرط في حديث عن شاب غريق كما فهم من كلام الناس الذي يسمعه بصعوبة. حدث نفسه قائلا، وكأنه يتبادل الحديث مع الكلب، فيما كانت الشمس تصعد في السماء لتكون فوق الجسر:

- يحدث هذا الأمر دائما. في كل وقت نجد ضحايا فيه. لقد كثر ضحايا النهر.

***

في هذه المدينة اختفى خمسة من الشبان السبعة، عند عبورهم شوارع المدينة القديمة المليئة بصور المرشحين لانتخابات البرلمان، إذ قتلوا بأداة خارجية استعملت خطأ في وضح النهار، وبين ناس المدينة، وقد كانوا أشد حذرا من الشرطة التي يزعمون انها تطاردهم، اختفوا دون ترك معلومة عن اختفائهم، ولا كيف توفوا. اختفوا مثل ضحايا النهر.

***

"قداح" هذا ربما كانت والدته، أو كان والده، قد حلموا مرة ان مولودهما البكر سيكون السائس الخاص لخيل الخليفة كوالده فأسموه "قداح"، وقد أعجبهم الاسم بعد أن سمعوه من عائلة مسلمة، وهو اسم مذكور في القرآن في سورة العاديات. أو ان أمه قد شمت رائحة القداح التي يتضوع بها زهر النارنج، وهو على شجرة النارنج المزروعة

في بيتهم. أو ان والده أراد اشعال النار فقدح "حصوتين" ببعضهما فقدحت النار، واشتعلت. ولهذا سمي هذا الشاب "قداح". الشائعات كثيرة، والاسم واحد. و"قداح" هذا لا يهدأ باله ما لم يتعطر بعطر القداح، فهو يتضوع قداحا، واحتفظ بقنينة صغيرة في جيب جبته فيها عطر القداح صبها كلها عليه عند خروجه من الكهف، وذهابه إلى المدينة.

***

ساد وجوم ثقيل أثقل من الرصاص الذائب على وجوه الشابين، والكلب الذي عوى بصوت مليء بالوهن، ولم يجرؤ أحد منهما على الكلام، إلا ان "قداح" قرر الكلام فقال بصوت أكله التعب، بعد صمت عمّ الكهف الذي غادره معظم الشباب، ولم يبق سواه، والكبير "ريحان" الذي لم يستخدم أي تأثير على أصدقائه الشباب مثل كبر السن لكي يذهبوا للبحث عن أصدقائهم المتوفين، أو جلب الطعام، والماء:

- سأذهب أنا. علينا أن لا نستسلم لليأس، وبعبارة أخرى يجب أن تكون لدينا همة، ونطرد الخوف، والتردد من نفوسنا.

قالها كاليائس، ونهض، وهو ينفض جبته التي لا يعرف الوقت الذي ظلت فيه دون أن يخلعها من جسده الذي نحل كثيرا كأجساد أصدقائه الشبان، ويغيّرها بواحدة ثانية، وبقية ملابسه الأخرى. عدّل من وضع عمته على رأسه بشعره الطويل، ومن وضع دبوس رمز المدرسة فيها، ومررّ ذيل جبته على وجهه، ومسحه عدة مرات، بعد أن أزال القذى من عينيه الذابلتين كحبة ليمون ذابلة، فيما بقيت أسنانه دون تنظيف بالسواك.

أوصاه "ريحان" بما أوصى جماعته الشباب المتوفين قبله، قائلا:

- كن حذرا يا "قداح"، ليس عندي ما أقوله لك سوى هذه الكلمات التي فقدت معناها، وأصبحت عبارة روتينية نقولها بمثل هذه المناسبات التي نفقد فيها أحبتنا الواحد تلو الآخر، اعقل، و توكل.

ودعه، ودموع عينيه تجري كنهر جاري في فترة الفيضان. فلم يبق سواه في الكهف الذي دخلته الشمس فجر هذا اليوم، فغسلته، وجففت الرطوبة التي فيه، وأزالت بعض الأشنات الخضر من بعض شقوق جدرانه، وأرضه، وغادرته الوخامة، والنتانة، التي تحملها الشباب طيلة فترة البقاء فيه، وقد تشبعت أجسادهم، وملابسهم بها، وفاح بها فضاء الكهف.

كان الكلب مثل سيارة الشرطة دائما مهيأ للقيام بمهمة المرافقة دون أمر من أحد. كان هو بالوصيد، وهو في الانتظار، وقد مدّد قوائمه الأربعة إلى الأمام، فيما عيناه تتلجلج فيهما الدموع، وهي تنظر إلى الشابين، وكأنهما ترجوهما ألا يذهب أحدهما إلى الموت بقدميه، فالموت بانتظارهم في أحد أمكنة المدينة الحديثة، عند ناصية شارع من شوارعها، أو في زقاق من أزقتها بسلاح لم يعرفوه، وليس لهم القدرة على التخلص منه، مثل السيف، والرمح، والنبال، رضوا بذلك أم لم يرضوا، انه مكتوب عليهم كأثر القلادة الذي خطّ على جيد صبية حسناء، وهذه مفارقة انتبه لها "ريحان" عندما ذكرها، وتساءل مع نفسه قائلا:

- كيف نربط بين الموت، وبين جيد صبية حسناء؟

***

خرج الاثنان، قداح، والكلب يتبعه كخياله، للبحث عن كيفية وفاة الشباب، وكذلك للحصول على الطعام، والماء.

"قداح" تعبان، مهدود الحيل، وقدماه لا تحملان جسده الخاوي، والمنهك، والذي كان شبه خارج السيطرة، وهو يحاول استعادتهما مرة ثانية إلا انه كان يفشل في كل مرة.

هل كان "قداح" هو التعبان، والمهدود الحيل، فقط؟ انه واحد من سبعة شبان ظلوا في الكهف سنينا طويلة غير معروفة من قبلهم، والكلب معهم، كلهم تعبى، وكلهم مهدودي الحيل. كان التعب مرسوما على وجوه الشباب السبعة، وكلبهم ثامنهم الذي كان في الوصيد، وقد توفوا، وهم تعبانين، مهدودي الحيل، جوعى، وعطشى.

***

كان صباح المدينة لا كل الصباحات التي عهدوها قبل الدخول في الكهف، والنوم فيه، تساءل مع نفسه، وكأنه يخاطب الكلب:

- كم لبث هو، وجماعته الشبان، في الكهف؟ بعض يوم، أو يوما كاملا؟ وبيت انثى العنكبوت، والحمامة، وبيضها، وشجرة البلوط، اين هم الآن؟

وصلا إلى أطراف المدينة، عبرا محطة القطار في الجهة الجنوبية لها، كان "قداح" معجبا بالذي رآه، البناية، وقضبان حديدية ممدودة على الأرض على مساند صلبة لا يعرف المادة التي صنعت منها، وشبه بنايات حديدية تتحرك على عجلات حديدية فوق القضبان الحديدية، وعجلاتها الحديدية على محاورها الحديدية أيضا، وهي تزمجر عاليا، فيما الكلب لم يعر أي اهتمام للمحطة، إذ هذه المرة السادسة التي رآها، ولم يندهش، فقد جاوز الاندهاش الذي مر به في المرة الأولى

عندما رآها. دخلا شارع عريض كما دخله جماعته من قبل، وصلا إلى ساحة "الراية"، توقف "قداح" فيما استمر الكلب يسير فتبعه دون أن يسأله، كان الكلب دليلا له في المدينة، وكان دليل ثقة فقد زارها خمس مرات.

في طريقه إلى مركز المدينة للبحث عن المستشفى الذي وضعوا فيه، التقى بناس كثيرين، نساء سافرات، ورجال يرتدون أزياء ليس بمثل ما ارتدوا هم الشباب السبعة، وكلهم كان مندهشا لمرآه، ومرآى ملابسه، وقذارتها، ووساخة جسمه، وعندما تحدث مع بعض الناس أجابه من فهم حديثه بأن الموتى موجودون في المستشفى العام للمدينة.

كانت اللغة هي العائق الذي يقف بين الناس، وبين الشباب السبعة، فلغة الناس غير مفهومة من قبل الشباب، وصعبة لغة الشباب من قبل الناس، وتحتاج إلى مجهود كبير لفهم كل من الآخر، وهذه واحدة من المعضلات الكبيرة التي واجهوها، الشباب، والناس.

سار الاثنان، "قداح"، والكلب، والكلب قد توسخ شعره الأبيض بالدم في أكثر من مكان، كان سببا في اندهاش الناس منهما، حتى الذين في محالهم خرجوا منها ليروا الشاب "البدوي"، والكلب. وقبل الخروج من شارع ليس بالعريض، ولا بالطويل، نظر إلى جهة الشمال ثم إلى جهة اليمين، والذي في حواف ظلاله أطفال يلعبون لعبة "اشمخطرك يا گمر"[١]، فتقدم داخلا شارع الحبوبي، والشارع يتكلم كلام الناس، وصوت جماهيره يرتفع عاليا بوحدة العراق بهتاف واحد (بالروح بالدم

(١) اشمخطرك يا گمر: وهي لعبة صبيانية يلعبها الصبيان حيث ينام احد الصبيان، ويخبئ رأسه في حضن صاحبه، ويعبره الصبيان الآخرين الواحد تلو الآخر، والصبي الذي وضع الرأس المختفي في حضنه يسأله (اشمخطرك يا گمر) أي ماذا عبر عليك؟ فاذا عرفه يتبادلان الوضعية.

نفديك يا عراق)، ووقع خطى الأثنين، هو، والكلب، ثقيلة، محاولا اجتيازه من جهة غير مكتظة بالناس، ولا مزدحمة، وانما كانت فيه الوجوه مستغرقة، جاءت دراجة نارية يقودها صبي غير مسموح له قيادتها قانونا، وضربت الشاب "قداح"، ورفعته إلى الأعلى، وأنزلته إلى الأرض "بلا حس، ولا خبر"، والدماء تجري من رأسه الذي اصطدم بالحاجز الكونكريتي لرصيف الشارع الصلب، والتوت ساقه، وتوفي في الحال، وقد سقط منه كيس الخضار. وفي الوقت نفسه اختلت قيادة الصبي للدراجة، وانقلبت به، وسقطت عليه فمات بالحال.

كان قد حصل "قداح" على بعض الخبز، والطماطة، والخيار، قدمها له بائع خضار رأف بحاله عندما فهم منه انه جائع، فجمعها في كيس نايلون، وسلمها له.

حمل الكلب الكيس الأسود بأسنانه، وراح يعدو في طريق العودة بعد أن غطس قائمته الخلفية الخالية من دماء المقتولين قبل "قداح" بدم "قداح"، لكنه نسي ان الكيس قد تمزق من أسفله بعد سقوط "قداح" على حاجز الرصيف، فأخذت محتويات الكيس تتساقط الواحدة تلو الأخرى في الطريق إلى ان وصل الكهف فوجد الكيس خاليا من كل شيء.

***

ساد سكون، وصمت رهيب، كانت عينا "قداح" مفتوحتين على وسعيهما، وهي تحمل نظرة حائرة فخامره شعور مخيب للأمل انه ميت لا محالة، وأنفه ينزف قطرات دم حمراء بصورة متقطعة في الأوّل، وبعدها سال الدم عبيطا، عندها بربر مع روحه بكلام غير مفهوم، ولا مسموع، وهو يتأمل الناس المتجمهرين حوله، ولا شرخ

بسيط في جدار تجمهرهم حوله، فمنهم من كان وجهه مليان، ومنهم من كان وجهه ممصوصا كحبة ليمون بيد سكران، ومنهم من كان ملتح، ومنهم من كان بلا لحية، وما زال رأسه على الرصيف بعد أن اجتاحته رغبة في الحديث مع "ريحان"، وقد مرت عليه نسمة هواء باردة فاختض جسده عدة مرات، فصعدت القشعريرة في نخاع حبله الشوكي، فقال لروحه التي تحوم حوله مثل الفراشة التي تحوم حول زهرة، قال بحشرجة محتضر:

- هل سألتقي بأصحابي الذين سبقوني إلى عالمهم الثاني؟ "نور"، و"جميل"، و"حلو"،و"ضياء"، و"نهار".

أجاب بسرعة البرق الوامض:

- انها رحلة كأي رحلة عادية، انتقال من عالم إلى عالم آخر مغاير للأوّل، وأوّل الاختلافات هو انه عالم هاديء، لا مشاكل فيه، ولا هم يحزنون.

***

جاءت مفرزة الشرطة يقودهم ضابط برتبة نقيب، عاينوا الجثتين، كتبوا في الأوراق التي معهم، حملوهن إلى سيارتهم، ورحلوا إلى مركز شرطة البلدة، وكتبوا التقرير، وختموه بإغلاقه. فيما الكلب تابع عدوه إلى الكهف، وهو يلهث.

***

في اليوم الثاني نشرت الجريدة المحلية خبرا مؤداه ان الشرطة عثرت على جثة شاب متوفي، يعتقد انه شاب بدوي، والتحقيقات مستمرة لمعرفة البيانات كافة.

لم تكن الصحف اليومية قد قرأها أحدهم، لأنهم لم يمروا على مكتبة تبيعها عند نزولهم للمدينة التي يزدحم فيها شارع الحبوبي بعد مقتلهم.

(٧)
"ريحان"

ليس هناك أحد مضطرا للحديث عن الشباب الذين فقدناهم في هذه المدينة القاتلة، وأظن ان لدي الحق في ذلك بعد أن رأيتهم يتسابقون إلى الموت. علينا أن نموت جميعا. كنت أحدث نفسي، فيما الزمن يمر، والانسان يموت، ويدفن الجسد في باطن الأرض، ولا نعرف سوى الذي تعلمناه، وشاهدناه، وروي لنا. والنوم هو نوع من الموت، فكنا ميتين عند نومنا، والآن صار أصدقائي الشباب الستة متوفين، أي انهم ليسوا نياما، فهم السابقون، ونحن اللاحقون بهم. ومن هذا الذي تعلمناه هو الطريق إلى المدينة، فهو يمر بطبيعة جغرافية مختلفة، فبينما المدينة تقع في طبيعة طينية، زراعية، من طبيعة السهل الرسوبي في العراق، فانها تقع بالقرب منها طبيعة صحراوية، ومن بعدها طبيعة جبلية، فإن ظواهر الطبيعة من مطر، وحر، وبرد، ورعد، وبرق، ورياح، وغير ذلك تكون مختلفة. وكذلك مختلفة من ناحية المواد المستعملة في البناء، إذ في الجبل تبنى البيوت من حجر الجبال، وفي الصحراء تبنى البيوت من شعر الابل، وتبنى بيوت المنطقة الزراعية بالطابوق الذي من أصل اللبن الطيني المشوي، أو بالقصب، والبواري. وهطول المطر في المدينة ليس كعادته في المدن التي تقع على أطراف صحراء ممتدة من نهر الفرات إلى مدينة البصرة، ومن امتداد هذا النهر حتى الحدود السعودية، وتكون ممتدة داخل دولة السعودية من الجنوب، ومن الشرق تمتد داخل دولة الكويت، فنزل مرارا في شهر تموز من فصل الصيف غير الممطر، بل هو جاف، وحار، ولا يمكن للناس أن يعيشوا

فيه في وقتنا الحاضر دون برادات هواء، أو مكيفات. وشهر تموز هو الذي يتشابه، والشهر الذي يليه، شهر آب، في درجة الحرارة العالية في المدينة، والجفاف كذلك.

كانت درجة حرارة الكهف العالية أدت بالشاب "ريحان" أن يخلع جبته، وعمته، والكلب ما زال بالوصيد، وهو يلهث، ولسانه خارج فكيه شبه أبيض اللون، شبه يابس من شدة العطش، والحرارة، وجفاف الجو، حتى ان حليمات التذوق فيه قد برزت بيضاء مثل تلال ملحية في صورة بالأسود، والأبيض.

"ريحان" هذا كان يميل إلى العزلة سابقا قبل مطاردة العسس له، حتى انه أجاب والده عندما سأله عن عزلته هذه، قائلا:

- اخشى البشر في الخارج.

قال له والده متعجبا:

- كيف تقول ذلك، نحن لا نستغني عنهم؟

أجابه بكل ثقة:

- نحن لا نستغني عن الانسان لا البشر، الانسان شيء، والبشر شيء آخر. البشر غير مؤتمنين أبدا، لا يفكرون بعقولهم، انما غرائزهم هي التي تحركهم.

كان يعيش في بيت أهله وحيدا في غرفته، مثل الغريب عن أهل الدار، كان يفكر بالقراءة، والكتابة، وفي مستقبله على الرغم من انه متزوج، وله بنت واحدة. كانت الغرفة مكانه الثاني بعد المدرسة، حيث يقضي جل وقته عندما يكون في البيت فيها، أما زوجته فهي دائما بين أخواته في حديقة البيت يتسلين مع "رياحين" ابنته ذات الخمس سنين، ولا تراه إلا عند المنام، والأكل، فهما الغريزتان اللتان تحمدهما دائما.

سبعة أيام، هو، والكلب، وهم لم يذوقوا قطرة ماء، وكسرة خبر يابس حتى، والشباب الذين توفوا كذلك مثلهم، توفوا، وهم جياع، عطشى، منهكي القوى، فيما ماء المطر ينزل بكثافة شلال "گلي علي بيگ" على المدينة الممتدة من نهر الفرات جنوبا حتى نهر "شطيط" شمالا، ومن بهو الادارة المحلية غربا حتى الطريق السريع شرقا، وقد حرم من نزول المطر على الجبل، فقد ظل جافا طيلة فترة الصيف، حتى الغيوم تمر عليه دون أن ينزل الماء منها، وهي محملة بالماء، فهل كانت تسلم عليه لتغيضه؟

ظل "ريحان" صامتا لا ينبس ببنت شفة، كان وحيدا، أعزلا، وهو يتذكر جسد زوجته، والفراش الدافيء، فيما الكلب ينظر له بعين الرأفة، وكلاهما دموعه نازلة من بقايا مآقي خاوية، ذابلة.

تذكر "ريحان" ما كان في الكهف من حياة نابضة بأصدقائه الشبان، وتذكرهم الكلب كذلك. كان الجوع قد نشب مخالبه في جسد "ريحان"، والعطش كذلك، فيما الكلب قد تأسف على الخضروات التي فقدها في الطريق، تساقطت الواحدة تلو الأخرى دون أن يعلم، وفجأة نهض "ريحان"، واستقام واقفا إلا انه قد ظهر للكلب ان ظهره قد أحدودب قليلا، فيما قوائم الكلب الأربعة أحس بها انها لا تستطيع من حمل جسده المنهك، وبالكاد استطاع من القيام، والوقوف عليها.

تحرك "ريحان" بعد تردد طويل إلى فتحة الكهف بتكاسل تحت وطأت جسد منهك، وخرج، وهو يقول بصوت منخفض:

- اعقل وتوكل يا "ريحان"، في هذه اللحظة مطلوب منك التفكير الصائب، واتخاذ القرار المناسب لتجاوز الأزمة، لقد توفيوا جميعا، ولم يبق سواك أنت، والكلب، والكلب غير عاقل، وهو لا يتخذ قرارا

لوحده، أو مع الغير، عليك، أنت فقط، الاعتماد، وعليك فقط الخروج من هكذا أزمة، وهكذا مصيبة.

بدأ القلق يتسرب من ملامح وجهه الحزين، والنحيل، والممصوص كحبة ليمون فقدت انتعاشها. كان يبحلق بالأشياء وهو شارد الذهن، والمزاج المفقود.

توجه إلى مكان عند جانب فتحة الكهف، خلع لباسه الطويل، وبال، وكانت هذه آخر بولة له في هذه الدنيا. والكلب ينظر له باندهاش، وهو يقول مع نفسه:

- ارفع ساقك أيها الشاب فقد توفي أصدقائك، وأنت تبول بالقرب من فتحة الكهف، فأي فأل حسن هذا؟

***

عقد "ريحان" حاجبيه بصمت مطبق كما يفعل دوما عندما يعزم على اتخاذ قرار ما، وهذه اللحظة قرر الذهاب إلى المدينة، وهذا ما عقله، فقد قرّ قراره على ذلك، وبدأ ينفذه كما لو انه كان يراقب حجرا مسطحا رماه على سطح ماء النهر، ويعد عدد المرات التي ينط بها الحجر على سطح الماء. فيما الكلب رفع خطمه لينظر اليه من الأسفل كأنه يستعطفه لايجاد حل ما.

في ذلك الوقت استشعر الكلب بخواء صوت "ريحان"، وخفضه، وتكاسل في الحركة، والاقدام.

أجال "ريحان" بصره بالسماء فكانت زرقاء سوى بعض السحب البيضاء التي تتحرك نحو المجهول، وقد عرف انها سحب غير مطيرة. تحرك بتكاسل عرفه الكلب من خلال مشيته مباشرة، فكر مع نفسه قائلا:

- أراه مثل الذي يقدم قدما، ويؤخر أخرى. انه مشوش الفكر، والبال. لا يرغب بالذهاب إلى المدينة، وفي الوقت نفسه يرغب في ذلك، هل كان يفكر بذلك؟ وبماذا يفكر؟

شعر بأن تفكيره مشوشا، لا يستطيع التفكير الصائب، ولا اتخاذ القرار الصائب فهل هذا ينطبق عليه عبارة إعقل، وتوكل؟ فهل يستطيع التعقل في مثل هذه الظروف؟ وهل هذه الظروف تتطلب التعقل؟

أنا، قال "ريحان":

- مشوش التفكير، وغير قادر عليه، والكلب كذلك.

***

المدينة ليست مدينته، ومناخها ليس مناخ مدينته، ولا الشوارع، ولا البيوت، ولا المحال، ولا ما يمشي، ويسير في الشوارع، والأزقة، ولا الناس، ولا ما يلبسون حتى.

كان دخول الشاب، ورفيقه في الطريق، الكلب (وفاء) كما سماه صاحبه، الذي خرج لسانه اليابس من خطمه، وبعد أن انتهوا من صوب الشامية من خلال عبورهم جسر النصر فمالوا إلى جهة المحكمة، ودخلا شوارع، وأزقة، متنوعة، وكانت المحلات مفتوحة، شغالة، تعرض ما فيها من مواد غذائية، وغيرها، وهي غير معروفة للشبان، وغير خالية من زبائنها من النساء، والرجال، والأطفال، وهم يتسوقون منها. كانت البيوت مغلقة الأبواب الحديدية أو الخشبية، وكان قسم منها ذات أسيجة، وأخرى بدون أسيجة، ونوافذها مفتوحة على الشارع، وهي مغلقة، ويسمع مها صياح امرأة على طفلها، أو صبيان يلعبون. وبينهما، "ريحان"، والكلب، وصوت "كالوشه" يسمع

في زقاق مفتوح من طرفيه فإذا بهم يسمعون صراخ إمرأة تخرج من أحد البيوت دون عباءة أو غطاء رأس، وهي تصرخ بأعلى صوتها:

- الحقني يا أخي البيت يحترق.

توقفا عن السير، فهم منها ان البيت يحترق، فسألها مستفسرا:

- ماذا حدث يا أختي؟

أخبرته قائلة، وهي تولول:

- احترقت قنينة الغاز.

لم يفهم منها شيئا، فأعاد عليها سؤاله:

- ماذا حدثت؟

أجابته بالجواب نفسه فلم يفهم قولها "قنينة الغاز"، وانما تركها، وأسرع، ودخل الدار.

لم يعرف الكلب ما يحدث في الدار، ولا المرأة تعرف كذلك، وانما سمعا صوت انفجار كالرعد القاصف أو أشد، وسقط جسد "ريحان" بينهما، وهو يرفس برجليه ما برح أن انطفأ نبضه، وهدأ صدره من الصعود، والنزول، إذ توفي بعدها، والدماء ملأت جسده المحترق، وملابسه قد تمزقت.

تذكر الحريق الذي حدث في غرفته جراء الكانون الذي اشتعل فحرق أقرب قماشة له وهي شرشف يوضع على فراشه القريب منه فأسرع هو، والعبيد في بيته، وجلبوا الماء، وفي اليوم الثاني اشتروا خزانات مصنوعة من جلد الابل، والبقر، وملأوها يالماء، ووضعوها في دارهم، وتساءل مع روحه:

- هل تركها الجنود المغول أم مزقوها؟

***

وقتها خامره شعورا مخيب للأمل انه ميت لا محالة، وكانت المرأة تولول صارخة، عندها تساءل مع روحه التي تطوف جنب جثته، وهو يتأمل الزقاق، وقد امتلأ بالناس، نساء، ورجالا، وصبيانا، وصبايا، ورأسه على الأرض بعد أن اجتاحته رغبة في الحديث مستفسرا عما حدث، وقد مرت عليه نسمة هواء باردة فاختض جسده عدة مرات، سأل روحه بحشرجة محتضر:

- هل سألتقي بأصحابي الذين سبقوني إلى عالمهم الثاني؟

فأجابت روحه بسرعة البرق:

- انها رحلة كأي رحلة عادية، انتقال من عالم إلى عالم آخر مغاير للأوّل، وأوّل الاختلافات هي انه عالم هاديء، لا مشاكل فيه، ولا هم يحزنون.

ماتوا الشبان الستة، وأنا ميت كذلك، وكلبنا أيضا، وأخذوا معهم سرهم إلى القبر، فلم يقع سرهم بيد الشرطة، وآمرهم، ومركز شرطتهم. فلا عرفوا كم ناموا، ولا عرفوا المدينة السابقة، ولا اللاحقة، ولا الاختراعات الحديثة التي قتلوا فيها. غادروا الحياة الدنيا إلى العالم الآخر بجببهم، وعمائمهم، ودبوس مدرستهم، وهم يودعون مدينة غير مدينتهم، وزمن غير زمانهم، وحضارة غير حضارتهم، وثقافة غير ثقافتهم، وتعليم غير تعليمهم، وأدوات غير أدواتهم، واختراعات غير اختراعات، وعلاقات غير علاقاتهم، وكل شيء غير كل شيء عندهم.

قبل ان يشرد إلى عتمة خانقة يعرف تفاصيلها جيدا، تساءل مع روحه:

- هل أنا بكابوس حلمي؟ علينا أن ننحي عنا ذكرياتنا جميعا.

إلا ان ذكرياتنا الحزينة هي التي تتسابق لتحجز لها مكانا في صدارة التذكر، عندها تيقنت ان موتي، وموت أصدقائي الشبان الستة، كان وفاة، ولم يكن نوما، فهل كان موتا ياهتا أو انه موت شهي، وجميل؟

***

كان يتسمع لما يتحدث به الناس المتجمهرين حول جثته، إذ سمع من أحدهم، وهو يقول:

- هذه المدينة هي سرة الكون، فمن أين جاء هؤلاء، ها؟

بعدها فهم من كلامهم انهم رؤوا شبيهه، شاب يلبس الجبة ذاتها، والعمامة ذاتها، وقد قتل يوم أمس.

صاح آخر:

- أنا شاهدت شخص يشبهه يوم أوّل أمس؟

قال ثالث:

- وأنا كذلك.

صاح رابع::

- وأنا شاهدت شبيهه قبل خمسة أيام.

صاح خامس:

- وأنا رأت شبيهه ميتا قبل ستة أيام.

صاح سادس:

- وأنا رأيت شبيهه قبل سبعة أيام.

هكذا رأى ناس المدينة هؤلاء الشبان يموتون الواحد تلو الآخر، وأخذوا سرهم معهم.

***

كان "ريحان" كبير الشباب سنا، زهز يتقدمهم في الدراسة، ولم يبق له سوى هذه السنة، وينهي دراسته في المدرسة. عشر سنين انتهت بحلوها، ومرها، وهو طالب علم، وقد رأى أكثر من عشرة شيوخ يدرسونه، أخذ عنهم الدين، والطبيعيات، والرياضيات، والفلك، والفلسفة، وعلم البحار، والشعر. وكان متقدما في كل هذه العلوم. كانت غرفته في دار والده مكان دراسته بعد أن يعود من المدرسة فهو يعتكف فيها، يغلق بابها عليه، منعزلا عن العالم الخارجي، مثل مريض بالتوحد، وكل همه الدراسة، والحصول على العلم، أما زوجته، وابنته، فرعايتهما من مسؤولية أمه، فهي ترعاهما في كل شيء، لأن زوجته هي ابنة اختها، ولولاها لماتا كمدا، وحسرة على رؤية "ريحان" بينهما.

مرة سأله صديق له في المدرسة قائلا:

- كيف هي فروضك الدينية؟ أقصد هل تؤدي الصلاة في أوقاتها مثلا؟

وضع "ريحان" الأوراق من يديه على الأرض، وابتسم قائلا:

- أنا أصلي بطريقتي الخاصة.

سأله الصديق مندهشا عن هذه الطريقة، فأجاب مبتسما:

- أنا أقرأ ما تقع عليه يدي من كتب.

ضحكا سوية، ومضيا يدرسان.

***

تساءل "ريحان"، كما تساءل أصحابه الذين سبقوه في الوفاة، ووقف السؤال ذاته مثل تمثال أبي الهول أمام أنظار الكلب، وهو وحيد فريد لا حول، ولا قوة له، قال:

- أين مجتمعنا؟ أين أهلنا؟ أين ناسنا؟ أين؟ وأين؟ وأين؟ هل انفجروا من الداخل فتفتتوا كالبخار في الفضاء الأزرق؟ علينا أن نلحق بهم، فهيا بنا يا وفاء، وكان يكلم الكلب، لأن على الأرض ما هو أسوء من الموت.

أراد أن يبكي إلا انه غيّر رأيه بعد أن وجد في حالة البكاء ان أصدقاءه الشبان قد تفوقوا عليه، وكذلك وجد قلبه من الداخل أكثر جفافا من رمال الصحراء القاحلة، فيما الكلب قد خرج من تساؤلاته الكثيرة، وقرر قراره الأخير، وهو...

***

في اليوم الثاني نشرت الجريدة المحلية خبرا مؤداه ان الشرطة عثرت على جثة شاب متوفي، والتحقيقات مستمرة لمعرفة كافة البيانات.

لم تكن الصحف اليومية قد قرأها أحدهم، لأنهم لم يمروا على مكتبة تبيعها عند نزولهم للمدينة التي يزدحم فيها شارع الحبوبي بعد مقتلهم.

***

(٨)
"الكلب وفاء"

سال سؤر الكلب عندما مرا، وهم في طريقهما على مطعم تفوح منه رائحة الأكل، وكذلك لعاب الشاب الذي يتقدمه بخطوات قليلة، وكان بعض الناس يدخلون، ويخرجون منه، فيما كانت صورة لرجل رشح للبرلمان، وهو يضحك، ملسقة على زجاج المطعم بألوانها الزاهية.

كل شيء قد تغير في المدينة، البيوت، المحال، الشوارع، الأزقة، وما يسير في الشوارع، والأزقة، من ناس، وكلاب، وعربات.

***

هل يتوجب علي أن أرى، الآن، كل شيء بعينين جديدتين لم تريا من قبل؟ ولشد ما تغيرت حياتي، قال الكلب لنفسه، من فصيلة الكلاب إلى فصيلة الانسان، وتأصلت كل اهتماماتي، ووظائفي. فاذا كنت في السابق أقوم بالحراسة فانني الآن أقوم بها بانتباه زائد. واذا كنت أرافق أصحابي فانني الآن أرافق هؤلاء الشبان إلى المدينة، وأعود بخبر وفاتهم إلى أصحابهم في الكهف. واذا كنت سابقا لا أستطيع الجوع، ولا تحمل العطش فانا الآن صار لي سبعة أيام، وأنا جائع، وعطشان. ألم أقل لكم قد تأصلت اهتماماتي، ووظائفي السابقة؟

أنا لست كمظلة المطر التي تصبح عبئا على صاحبها عند انتهاء نزول المطر، فأنا أحمل الوفاء للذين تربيت داخل بيتهم، بيت "جميل"، من نعومة أظفاري، وكنت آكل بأواني نظيفة، وليس من الأرض الجرداء، أو من قمامة الشوارع. وأشرب صباحا حليب الأبقار، أو من منتوجاتها، والبيض. وآكل اللحم المشوي، والمسلوق، وأنام في فراش نظيف،

ودافيء. وأشرب ماء صالح لشرب الانسان، وليس من السواقي، والبرك. وكان صاحبي هو "جميل" منذ دخولي الدار أوّل مرة جروا صغيرا، ورضيعا، تسقيني الخادمة الحليب حتى أدركت ما يحدث من حولي.

كنت أنام بهدوء، وأحلم أحلاما كلبية جميلة، فيما الآن أحلم أحلاما فيها أصدقائي الشباب، وهم في ذهني متمركزين، والناس كافة، وما جرى لهم من أحداث، وحوادث.

أنا واثق مما أفعل. هكذا استمرت أفكار الكلب مع نفسه، وهكذا تكلم بصمت. وكان يستاء من كون أبواب الدور التي يمر بها هو، وأحد الشباب الذين يأتون معه، ويموتون، مغلقة على أهلها لا صوت فيها، ولا هم يحزنون.

***

ما أدهشني ما تم في المكتبة العامة، وما يحدث الآن في شوارع المدينة، هو القتل بالمجان، وهو مقال كتبه رئيس تحرير الجريدة المحلية في المدينة، وفي آخر المقال بعد أن استعرض مقتل الشباب السبعة، وغلق ملفاتهم، وتسجيل الحادث ضد مجهول، تساءل هذا الصحقي قائلا:

- هل يسري هذا القول، أي القتل بالمجان، على قتل الكلب الذي رافق الشباب إلى المدينة؟ وكان يقصد انتحاره من فوق جرف هارٍ؟

وبدورنا نحن القراء، وكاتب هذه السطور من ضمنهم، ان يتساءلوا عن انتحار الكلب، وعن السبب في ذلك؟

يرى كاتب هذه السطور، وهو مستل مما فكر به الكلب، وقاله، ان سبب انتحاره هو وفاء للشباب السبعة الذين ماتوا جراء الاستخدام

المغلوط لاستعمال الاختراعات الحديثة حيث طال هذا الخطأ القدماء منا، ولم يوفر الانسان الحاضر، ولا الماضي.

تساءل الكلب كذلك مثلنا، وفكر قبل انتحاره، وقال في سريرته:

- هل كتب على الشبان السبعة أن يقتلوا بالاختراعات الحديثة مثل: المسدس، والطائرة، والسيارة، والدراجة النارية، والكهرباء، والسينما، وطباخ الغاز، وهم ليسوا من عصر هذه الاختراعات؟

وتابع الكلب قوله، وكان يعدو نحو مصيره المحتوم:

- توفوا جميعا، الشاب "جميل" بإطلاقة مسدس شرطي لم تكن تقصده. وقتل الشاب "حلو" عندما صدمته عجلة طائرة بسرعة الاقلاع. وقتل الشاب "نور" عندما دهسته سيارة مسرعة. وقتل الشاب "ضياء" بصعقة كهربائية تقتل ثورا، بدار خربة. وقتل الشاب "نهار" باصطدامه بسياج المنتصف لدار سينما، وكان هاربا من مطاردة متخيلة للشرطة. وقتل الشاب "ريحان" بانفجار طباخ غازي لم يكن معنيا به. وقتل الشاب "قداح" عند اصطدام دراجة نارية به. أما أنا الكلب سأتوفى يرمي نفسي من ارتفاع شاهق. فهل كتب علينا أن نتوفى هكذا، وبالمجان؟

وبعد فترة صمت تابع الكلب قوله:

- تعلمت الكثير من ثقافة، وعادات، وتقاليد، الانسان. رافقتهم في هروبهم، ونمت معهم داخل الكهف، ولا أعرف كم بقينا فيه، وكم نمنا. وتعلمت منهم النزول إلى المدينة، وعرفت الطريق اليها، وعرفت شوارعها، وأزقتها، ومحالها، ودورها. ورأيت كيف توفوا الشباب، وبأي شيء قتلوا، فتغيرت حياتي، ثقافة، وعادات، وتقاليد، فشعرت بأنني تغيرت من فصيلة الكلبيات إلى فصيلة الانسان

المدرك لما يقوله، ويحس، ويشعر به، فجعلوني أشاركهم حياتهم، اهتماماتهم، أحلامهم أيضا، وها أنا أشعر بانسانيتي إلا انها انسانية مهدورة أمام القتل المجاني الذي كتب عنه رئيس تحرير الجريدة المحلية.

***

استمر الكلب يتحدث مع نفسه حتى وصل إلى المكان الذي اختاره ليكون مكانا للانتحار، وقف على جرف هار لقمة جبل عالي أجرد، وما زال خاطره يطرح التساؤلات، والتساؤلات، ومن هذه التساؤلات هي:

- هل مغزى الحياة هو توقفها كما توقفت حياة هؤلاء الشباب السبعة بعد عمر غير معروف، ولأي سبب كان؟

وظلت التساؤلات تنهال عليه:

- هل أبكي كما يبكي جفن بنيَ بالدمع نعيا، وجفت الدموع؟ والذين فقدناهم يستحقون ذلك؟

- وهل الشباب السبعة، وأنا كذلك، في حالة هروب مستمر؟ ومن أي شيء نهرب، ولماذا؟

وحدث الذي كان غير متوقع الحدوث الآن، رمى الكلب بنفسه، وكان يتساءل:

- هكذا لم تفارقني الابتسامة بينما كان جسدي يطير في المسافة الواقعة بين الجرف الهاري في قمة الجبل، ووديه الصخري.

ولم يكن طريق الحرية سهلا يسيرا، إذ كان الشبان السبعة، وغيرهم، يبحثون عن الحرية، وقد دفعوا الكثير في سبيل ذلك، دفعوا حريتهم الشخصية فسجنوا؟ وبحثوا في هذا الزمن عن الخلاص فلم يجدوه، وقد دفعوا الكثير في سبيل ذلك، دفعوا

حياتهم في سبيله، ولم ينالوه، ولم يصلوا له، وحتما انهم بحثوا عنه في أزمان سابقة، فهل يستمر البحث عنه دون جدوى؟ والخلاص الذي ينشدونه هو في الحرية.

أنا كنت برفقتهم ابتداء من "نور" حتى "ريحان"، وهم في أغلب الأحيان يمشون بمحاذاة الجدار ليتحاشوا المارة من الناس، وليبتعدوا عن الأطفال، ومزاحهم مع الشاب من أجل ملابسه البدوية. الحرية ما زالت مسؤولية كبيرة فهل كان الشباب، وغيرهم، يستطيعون الاضطلاع بها؟

***

خامره شعور مخيب للأمل فتساءل، وهو يتأمل بعينية ما يرى، وقد اجتاحته رغبة في الحديث مع روحه، ومرت عليه نسمة هواء باردة فاختض جسده عدة مرات، وقال بحشرجة نحتضر:

- هل سألتقي بأصحابي الذين سبقوني إلى عالمهم الثاني؟ وأجاب بسرعة البرق: انها رحلة كأي رحلة عادية، انتقال من عالم إلى عالم آخر مغاير للأوّل، وأول الاختلافات هو انه عالم هادىء، لا مشاكل فيه، ولا هم يحزنون.

مات الشبان السبعة، حدث الكلب نفسه، وهم لا يعرفون لماذا ماتوا، والشرطة كذلك لا تعرف من هم، سوى ان الدكتور قال ان أزياءهم تشبه أزياء طلبة المدرسة المستنصرية، والدبوس الذي يضعونه على عمائمهم هو شعار المدرسة تلك.

***

احتار الكلب ماذا يفعل، أيعود إلى الكهف، أم لا؟ هذا الكهف الخالي من الأحلام، حتى الكوابيس لا تزور النائم فيه. كان دائما يعود إلى

الكهف، وفي مآقي عينيه ذات البياض المشع دموعا تنبجس من بين أهدابهما، وهي تنزل متواصلة يقرأها الشباب، خاصة "ريحان"، انها دموع حزن على موت الشاب الذي رافقه إلى المدينة.

تساءل:

- لماذا الكوابيس، وهم يعيشون الكابوس يوميا، بل ساعة بساعة؟ فمن ظل في الكهف بعد أن مات "ريحان"؟ إذ تبع الشبان الستة، ومات، وهو يعرف انه ماض إلى حتفه؟

سأبقى يتيما حتى لو عانقني العالم باسره، علي أن أرحل معهم، لم أتعرض لأي ألم، أو عنف، من صاحبي "جميل" أو أهله، ولا من أصحابه الشباب.

كانت علاقتي مع الناس الطيبين، ولم تكن علاقتي مع الكلاب الآخرين معدومة، حتى بت أفهم كل الذي يريده الانسان لا الكلاب.

فمثلما عشت وحيدا لا يصحبني كلب آخر في بيت "جميل"، عشت كذلك وحيدا، وأنا مع الشباب في الكهف، ومت، وأنا وحيد، وكنت دائما هكذا عند مغيب الشمس.

لم يكن من بين الشباب السبعة من هو جبان، وغير مستعد للتضحية في سبيل زملائه، وكان أنا كذلك.

كانت الأفكار التي تنزل على تفكيري البسيط الذي ليس هو كما تفكير الشباب، ليس فيها ما يخيفني، أو يجعلني مترددا، كما هم الشباب أيضا، فكلنا جريء لا يخاف لومة لائم، وفيما هو كذلك وصل إلى ما يريد، فدفع بجسمه كما يدفع السباح جسمه من على منصة القفز إلى حوض السباحة لينزل على رأسه، صار في الهواء سريعا، تهاوى الكلب من على صخرة بأعلى الجبل، وهو يفكر بهذه

المدينة التي تسرق الأرواح كما يسرق اللص الحاذق الكحلة من العيون، لقد كرهها كما يكره الانسان دم أسنانه.

***

في اليوم الثاني نشرت الجريدة المحلية خبرا بالمانشيت العريض مؤداه ان شرطة المدينة عثرت في سفح الجبل العالي على جثة كلب أبيض الشعر فاطسا، يعتقد انه من كلاب الشباب البدو المقتولين، والتحقيقات مستمرة لمعرفة البيانات كافة.

لم تكن الصحف اليومية قد قرأها أحدهم، لأنهم لم يكونوا أحياء ليمروا على مكتبة تبيعها عند نزولهم للمدينة التي يزدحم فيها شارع الحبوبي بعد مقتلهم.

***

نهاية الحكاية

في اليوم العاشر من أيام الحكي، وفي مقهى حي السراي الذي يقع شرق المدينة، بالقرب من النهر، والمحاطة ببساتين النخيل من كل الجهات، وكان ساكنوا هذا الحي من رجال، شيوخ، وشباب، وصبيان، وأطفال قدموا للمقهى في أحضان ذويهم، وفي خارج المقهي جلست النسوة، وهن متخمرات بالخمر السود، ولابسات العبي السود، وكأنهن أشباح سوداء.

كان كل شيء مهيأ لنهاية أحداث الحكاية، فقد أعد صاحب المقهى مقهاه لهذه المناسبة التي يعدّها الرواد تاريخية، فغسل أرضيتها المعبدة بالطابوق الفرشي[١]، ومسح آثاثها، وغسل أوانيها بسيم التنظيف، وتعقيم زواياها بالديتول، وأشعال أعواد البخور، ووضع فرش جديدة لمقاعدها، وعطرها بعطر ماء الورد.

عندما إمتلأت المقهى بروادها من سكنة الحي، قال "القصة خون" متسائلا، وهو على كرسي الحكي الخشبي:

- السؤال المطروح هو هل كانت وفاة الشباب السبعة لقضية هامة لا يمكن الحفاظ عليها إلا بدفع الدماء الزكية؟ وهل تحققت هذه القضية، ونالوا كلٍ مطلوبهم؟

قال هذا وجر نفسا طويلا من سيكارته "بغداد" ذات العلبة الحمراء، ثم تابع قوله:

- الجواب على السؤالين هو بالنفي، لا لأن القضية التي توفوا في سبيلها تستحق ذلك، ولا هي تحققت، إلا ان الأمر ليس بهذه

الصورة المعلنة، وانما بصورة غير معلنة، وظلت خافية على الجميع. ان قضية الشباب السبعة، وكلبهم ثامنهم، غير المعلنة هي ليس التخلص من ظلم العسس المغولي لهم، عسس الغزو، والاحتلال. وأنما هي قضية الاختراعات الحديثة التي غيرت كل شيء في الوجود، فقضت عليهم، وأدت لوفاتهم، إذ هي لم تحميهم، وتحافظ عليهم، فقد قتلتهم، وقتلت كل الأفكار التي كانت في عقولهم، وهم يجتروها جيل بعد جيل، وان هذا الأمر هو من مهام هذه الاختراعات الحديثة، ومن واجبها الأخلاقي، والعلمي، وليس في ذلك تناقضا إلا ما هو ظاهري. فاذا كانت حياة البعض في المجتمع منذ قيام الدولة العراقية إلى عام الاحتلال الأمريكي في سنة ٢٠٠٣ محكومة بالعقل، والمنطق، وكذلك أخلاقه محكومة بالقيم السامية، والنبيلة، وأيضا تربيته العائلية، والمجتمعية، محكومة بهذه التوصيفات الراقية، فإن حياة البعض من المجتمع بعد الغزو، والاحتلال الأمريكي، وكذلك أخلاق هذا البعض، وتربيته، قد حكمت بالجهل، والخرافة، والأساطير، والترهات، وبالكذب، والدجل، والحيلة، والنميمة، والقتل، والسلب، وكل الصفات السيئة التي ينبذها كل مجتمع سوي، إلا ما حافظ الانسان على ثوبه الناصع من أدران السوء، والخبث، ومن تلك الصفات السيئة، وغير القويمة. لقد جمعت هذه المدينة بين الاختراعات الحديثة، وبين ناس غير مؤهلين لتمثلها، ومن هنا برز التناقض الصادم.

---

(١) الطابوق الفرشي: هي طابوقة مربعة الشكل٢٠ × ٢٠ سم، تفرش به الأرضيات.

وهكذا انتهى الشباب السبعة في ثلاجات الموتى في المستشفى العام، وضعوا في أدراجها المصنوعة من "الستينلس ستيل" هذه السبيكة المخترعة حديثا، درج فوق درج، وهذا أحد التناقضات. تلاشى الشباب عن الوجود في المدينة الحديثة كما تتلاشى بلازما النار في الفضاء، انتهت ساعاتهم في الحياة الدنيا، ذهبوا إلى عالم غير عالمنا، بسبب الاستعمال الخاطيء للمخترعات الحديثة. وكان كلبهم الذي كان في الوصيد قد رحل معهم، أخذوه إلى عالمهم الجديد، لم يجدوا فرقا بين الانسان، والحيوان، فالكل كائن يتحرك، ويشعر، ويحس، وله قيم، وأخلاق، ومباديء. رحلوا جميعا كأطياف رمادية اللون من بخار ساخن خرج من قدر المدينة الحديثة الحار. وذابت خطواتهم إلى الأبد بفعل الاختراعات الحديثة التي عمت فيها، كالسيارة، والمسدس، والطائرة، والدراجة النارية، والتيار الكهربائي، والسينما، والطباخ الغازي، وأصبحوا كالريح لا يمسكهم جنيّ من جان سليمان، أو من الذين يسترقون السمع في السماوات حتى، ولا أنسي كذلك. رحلوا دون أن يتركوا شيئا سوى الذكريات، ولا نعرف ان كانت ذكريات جميلة أم قبيحة، المهم انها ذكريات فحسب، حتى عمائمهم البيضاء، وجببهم المطرزة، والدبوس المعلق في مقدمة عمائمهم ليرمز للمدرسة المستنصرية، وبابوجهم الجلدي، وأوراقهم المصنوعة من جلود الحيوانات، كل هذه الأشياء أخذوها معهم إلى عالم جديد بعد أن تجمدوا بثلاجات الموتى، وهم لا يشعرون، وهل يشعر الموتى؟ لو كانوا يشعرون لشعروا بنومهم في الكهف هذه الفترة الطويلة من حوالي عام ٦٥٦ هـ إلى يوم مقتلهم

بالاختراعات الحديثة، وسيبقون إلى يوم غير معلوم في ثلاجات الموتى.

***

لم يعد أي شاب من الشباب السبعة، ولا كلبهم، إلى الكهف بخطى ان كانت خطى ثابتة، أو كانت خطى زائلة، خطى متخاذلة أم خطى قوية، ورصينة، بل ذهبوا مباشرة إلى ثلاجة الموتى الباردة كالثلاجات الطبيعية للقطب الجنوبي للكرة الأرضية، ثلاجات المستشفى العام في المدينة، ومن بعدها إلى جوف الأرض لا سطحها، وكل الأفعال، والممارسات، والأقوال، والأحداث، والحوادث، حدثت على الأرض، وهم سيكونون تحتها.

بعد أن شرب "القصة خون" ما في القدح من ماء تابع حديثه، قال:

- تساءل الكلب قبل فطسه: هل كان لوفاة هؤلاء الشبان نكهة خاصة، أم كانت وفاتهم عادية؟ وهل سيجتمع هو الكلب مع الشبان السبعة كما كان معهم منذ دخولهم المكتبة العامة في زمن مضى، ومنذ أن اقتحم الفيل قاعة المطالعة عليهم، ومنذ نومهم في الكهف؟ هل يحدث هذا الأمر، وسيلتقون معا، وهم في جوف الأرض؟

تنحنح "القصة خون" ثم تابع قوله:

- هل وفاتهم قتلا، وفطس الكلب مترديا من أعلى قمة جبل، هو قضاؤنا، وقدرنا؟ القضاء، والقدر، من خارج ذواتنا، فالكلب قال مع نفسه: أنا لم أفطس، ولم يتوف الشباب السبعة بهذين الأمرين، وانما أرى، أنا الكلب ذو الشعر الأبيض، الذي انتحر بعد وفاة آخر الشباب ان كل شيء يتم بمسبباته، لاشيء يحدث دون أسبابه

الموضوعية، والذاتية، وكانت وفاة الشباب لاسبابهم الخاصة، والموضوعية، وكذلك الذاتية، وفطسي أنا كذلك، وإذا كنا متساوين بالولادة فقد تساوينا بالموت. فهل كانت وفاتهم هو انتقال إلى عالم آخر غير هذين العالمين، عالم العصر العباسي الذي طوردوا فيه، وعالم ما بعد ثمانمائة عام الذي توفوا فيه، وقد ناموا بين العالمين، أما العالم الثالث الذي انتقلوا له بعد وفاتهم فهو عالم يختلف عن ذينيك العالمين، أم انه شبيه لهما؟ هل هو بداية جديدة لحياة مختلفة؟ هي حياة الصمت المطبق.

كل شيء جائز، أما أنا هذا الكلب الوفي فأني أعلم ان لا حياة بعد الوفاة، هذه حياتنا الدنيا نموت، ونحيا فيها، وما نهلك إلا لأسباب عديدة، ومتنوعة، فمنهم من يتوفى حتف أنفه، ومنهم من يقتل، وما بدلوا تبديلا، هذه هي الدنيا ان ضاقت، وان وسعت فهي ليست مكان سكن دائمي، هي مكان حركة، وليست مكان سكون، وصمت.

***

تابع القصة خون قائلا:

- دونت بحروف عربية، وأضيفت لها الكتابة بحروف انكليزية، وحروف فرنسية، وحروف المانية، وحروف روسية، وحروف أوردية، وحروف صينية، وأخرى يابانية، وفي كل حروف اللغات، كل أسماء الشباب، والكلب معهم، وكان المدوّن الأوّل هو كبيرهم "ريحان" إذ خط على الجدار بحجر صلب اسم كل شاب قد توفي، أما بعد وفاته قتلا كجماعته فقد أكمل رجال الآثار في المدينة اسم "ريحان"، واسم الكلب لهم، ووضعوا لفتحة الكهف بابا خشبيا مصنوعا من خشب "الجاوي" الأحمر، ووضعوا كذلك مصباحا

بفولتية عالية داخل الكهف، وكتبوا على رقعة مصنوعة من الذهب الخالص عبارة "طلاب المدرسة المستنصرية المطاردين"، ورسموا في أعلاها شعار المدرسة الذي كان يمثله الدبوس المثبت على عمائم الشباب السبعة، ووضعوها على باب الكهف.

توفي الشبان، كما يتوفى بعض الناس، لأجل حريتهم، ولأجل الطعام، والماء، وعن هذين "الاقنومين" تنشب الحروب، وتقع المعارك، وقد خاض هؤلاء الشبان حربهم الخاصة للحصول على هذين (الاقنومين)، فواجهتهم الاختراعات الحديثة بسيف الاختراعات هذه فمنهم من توفي باطلاقة من مسدس "ربما" كان من صنع أمريكي، وهو بيد عراقية لم تكن مستهدفته. والشاب الثاني توفي باصطدامه بعجلة طيارة كان طيارها عراقيا لا يراه، والطائرة هذه هي من نوع "بوينك"، وهي طيارة من صنع أمريكي أيضا. والشاب الثالث دهسته سيارة لا للسائق العراقي ذنب في ذلك، والسيارة هي أمريكية الصنع من نوع "يونتياك". والشاب الرابع توفي جراء صعقة بتيار كهربائي في بيت كان لعراقي، وكان مخترع الكهرباء هو أديسن، وهو مواطن أمريكي. والشاب الخامس توفي داخل دار السينما العراقية، وصحيح ان السينما اختراع فرنسي إلا ان الفيلم الذي كان يعرض هو فيلم أمريكي. والشاب السادس انفجر بالقرب منه طباخ غازي، وصحيح ان أوّل من صنع الغاز هم فرنسي، وانكليزى، إلا ان طباخ الغاز الذي انفجر هو من الصناعان الأمريكية المستوردة، ومن مخلفات جيش الاحتلال الأمريكي. أما الشاب السابع فقد توفي دهسا بدراجة نارية من نوع دراجات هارلي الأمريكية الصنع، والتي استوردت من أمريكا بعد الاحتلال الأمريكي.

كلهم كانوا يحثون الخطى من الكهف إلى المدينة. وكلهم تلقوا نصيحة الكبير أن احذروا، وحافظوا على أنفسكم. وكلهم توفوا إثر حادث، وعمائمهم كانت ملقاة قربهم. وكلهم قرأوا كف الأرض المخضب بدمائهم فوجدوه ينادي عليهم أن هلموا اليَ يا أبنائي الشباب.

لقد كانت الاختراعات الحديثة هي القاتل فهل على الشرطة أن تسجل القاتل هو الاختراعات الحديثة؟ وكانت هذه الاختراعات هي من مصانع أمريكية فهل تسجل الدولة المسببة للقتل هي أمريكا؟ أم ان قتلهم جاء في سبيل تحقيق القضاء على الماضي، وفتح المجال للحاضر أن يحضر بكل أدواته المفيدة، وغير المفيدة؟

***

ما زال "القصة خون" يطرح الأسئلة ويجيب عليها أمام الذين حضروا إلى المقهي لسماع حكايته. تابع القول:

- هل كان للطعام أهمية كبيرة للشباب، وكذلك الماء؟ وهل كان لهما أهمية أكثر من الفكر، والعلم، إذ الجوع لا يرحم، ولا العطش كذلك. فاذا كانت مشاكلهم قد بدأت بطلب العلم، فلماذا أنهوها بالبحث عن الطعام، والماء؟ هل الانسان كرش، وقربة ماء، أم هو فكر، وعلم؟ هكذا تساءل الكلب على لسان "القصة خون"، بعد أن تجمعت جثث أصحابه الشبان السبعة في ثلاجة الموتى بمستشفى المدينة مثل جثث الكلمات المتعفنة التي لا رابط بينها، تلك الكلمات الزائدة عن الحاجة.

***

نتساءل نحن "القصة خون" كما يقول، والناس في المقهى، وخارجها، كما تساءل الكلب قبل أن ينتحر من جرفٍ هارٍ مع نفسه:

- هل كل ما جرى هو واقع، وليس وهما؟ أم انه وهم، وليس واقعا؟ هل كل ما جرى هو حلم في فراش وثير، أم انه حلم في فراش تتلاعب به الريح الباردة من كل الجهات؟

هل كان للشيطان من يد فيما حدث؟ هل ما حدث في السابق من مطاردة الشبان كان من فعل الشيطان؟ وهل كان ما حدث في الوقت الحاضر من قتل للشبان من عمل الشيطان أيضا؟ وهل ان الشيطان الأوّل غير الشيطان الثاني؟ فقط كانت الأدوات مختلفة إلا ان النتيجة واحدة. وهل كان تصنيف الشيطان بين كبير، وصغير، له ما يسوغه؟ الشيطان واحد لا كبير، ولا صغير، انه شيطان فقط. والشيطان هو نوازع النفس الشريرة، فكل انسان في نفسه نوازع الخير، ونوازع الشر، وأيهما يتغلب فله حق الفعل.

واذا كان الأكل هو من أجل أن يقاوم الكائن الحي الموت، فهل معنى ذلك اننا متنا لأننا جوعى؟

ظلت الأسئلة هذه في مخابئها، ولم تحصل على اجابة ما. فيما ذهب الماضي، والذي هو ليس حذاء قديم يمكن استبداله بآخر جديد، وكان ممثليه هم الشباب السبعة، وكلبهم ذو الشعر الأبيض ثامنهم، مثل سحابات بخار ما برحت أن تفتت إلى ندف خفيفة مثل حلم عند الاستيقاظ، لا لون لها، و لا رائحة، و لا طعم، ثم تلاشت، وذابت، في الفضاء الواسع، وفاحت رائحة الموت الباهتة.

وقبل ان يختم "القصة خون" حكايته قال:

- الموت يا أعزائي ليس هو ما نهابه، ونخافه، ولكن الحياة هي التي نخافها، ونهابها. إذ بعد أن تضاءل احساس الشباب بالحياة بدأت ما تسمى بالروح فيهم تغادر الجسد، فلا يمكن من استرداد تلك الحياة التي مرت، وقد غادروها، وهم فرحين بالذي تحقق لهم؟ فهل قتلنا نحن الماضي المتمثل بالشباب النائمين في الكهف، وقد عادوا الى الحياة في زمننا الحاضر، أم قتله الأجتبي المتمثل بأمريكا، والاختراعات الحديدة، اترك الاجابة لكم؟

وبعد لحظات ختم قوله بصوت عالٍ بعد أن استرد ادراكه الذي غاب لفترة قصيرة عنه قائلا:

- والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته، ومثل ما رحت اجيت، وجبت الكم حمص وزبيب[١].

ونزل من على كرسي القصة خون الخشبي المدهون بمادة الدملوك[٢]، وهو يبتسم

بعد هذا الكذب الذي حكاه طيلة سهرات هذه الليالي الطوال.

صاح رواد المقهى، وهم في أماكنهم يحتسون الشاي، ويدخنون السكاير، أو الأرگيلات، قائلين بصوت واحد تردد صداه في المقهى، ويخرج منها باحثا عن أذن تسمعه:

- أجدت، وأحسنت، وصدقت، فقد كانت حكاية جميلة.

***

(١) لازمة تقال في نهاية كل حكاية.

(٢) الدملوك: مادة تخلط مع السبرتو لتدهن به الآثاث الخشبية فيعطبها لونا بنيا.

((هذا عصر الاختراعات الجديدة بامتياز لقتل الأجساد، وإنقاذ الأرواح، وكلها تنشر بأفضل النوايا.)).

(بايرون)

صدر للمؤلف:

١ – القصص الشعبي العراقي في ضوء المنهج المورفولوجي – دراسة – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة -١٩٨٦ .

٢ - أبابيل – رواية – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ١٩٨٨.

٣ - طائر العنقاء – قصص قصيرة – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ١٩٨٨.

٤ - طريق الشمس – رواية – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة - ٢٠٠١.

٥ - الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – دراسات – ط١ - اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٠.

٦ - الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – طبعة ثانية مزيدة ومنقحة – معهد الشارقة للتراث – الشارقة - ٢٠١٩.

٧- الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة – دار الورشة – بغداد - ٢٠٢٠.

٨- الذئب والخراف المهضومة – دراسات في التناص الابداعي – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ٢٠٠١.

٩ – الجنس في الرواية العراقية – دراسات - دار المتن للطباعة والنشر – ٢٠١٨.

١٠ - أوراق المجهول - رواية – دار المتن للطباعة والنشر - ٢٠١٩.

١١ – التشابيه – رواية – مطبعة الحسام – ذي قار– ٢٠١٩.

١٢ – نخلة خوص سعفها كثيف – رواية – دار فنون – القاهرة – ٢٠٢٠.

١٣ - القصص الشعبي العربي – دراسات وتحليل – دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد-٢٠٢٠.

١٤ - رؤى الأسلاف "قراءة في الأساطير" – دار الورشة – بغداد - ٢٠٢١.

١٥- الكمامة البيضاء والقفاز الازرق – رواية – شركة ماندیلا للنشر والاعلان – تشاد – ٢٠٢١.

١٦- الأمثال الشعبية العراقية كما تضرب في الناصرية – مطبعة الحسام – ناصرية – ٢٠٢١.

١٧ – رؤى تشكيلية – قراءة في الخطاب التشكيلي العراقي والعربي – الكتاب الأول - مطبعة الحسام – ٢٠٢١.

١٨ – رؤى تشكيلية – تشكيل وشعر – الكتاب الثاني - مطبعة الحسام – ٢٠٢١.

١٩ – شاهد من الشعر العامي الحديث – مطبعة الحسام – ٢٠٢١.

٢٠ – تجليات الاسطورة – قصة يوسف بين النص الاسطوري والنص الديني. دار ابن النفيس – الاردن – ٢٠٢١.

٢١- اسطورة "جودر" العربية "دراسة في الأدب السردي العربي"– مطبعة الحسام – ٢٠٢٢.

٢٢ - النخيل يموت واقفا – مجموعة قصص قصيرة جدا – مطبعة الحسام – ٢٠٢٢.

٢٣- أحلام المغني الصغير – مجموعة قصص قصيرة – مطبعة الحسام – ٢٠٢٢.

٢٤ - الخيانة العظمى - أشعار التوراة وجذورها العربية القديمة- " مقاربة نقدية جديدة بين ترجمات الربيعي والنصوص التوراتية الرسمية" – دار الرافدين للطباعة والنشر – ٢٠٢٢.

٢٥ - السقوط والصعود في القصص الشعبي - "نحو منهج لدراسة القصص الشعبي" دار الشؤون الثقافية العامة – ٢٠٢٢.

٢٦ - ألهاوية – رواية - دار حروف متثورة – مصر – ٢٠٢٣.

٢٧ - المرآة المقعرة - "قراءة في ثلاثية عبد الرحمن مجيد الربيعي" - " الوشم، الأنهار، القمر والأسوار" – مطبعة الحسام – ٢٠٢٣ .

٢٨ – المعجم المبسط لملحمة جلجامش - مطبعة الحسام – ٢٠٢٣ .

٢٩ – السرد في الخيام والشعر في القصور – مطبعة الحسام – ٢٠٢٣.

٣٠ - أسئلة السرد – ج١ - "أسئلة القصة القصيرة جدا" - مطبعة الحسام – ٢٠٢٢.

٣١ – أسئلة السرد – ج٢ – أسئلة القصة القصيرة – اتحاد الأدباء والكتاب في العراق – ٢٠٢٣.

٣٢ – حلم بسعة النضوج – مجموعة قصصية – دار الأدباء بمصر – ٢٠٢٤.

٣٣ – ما رواه الأجداد "تشريح القصة الشعبية" – دار المحرر بمصر – ٢٠٢٤.

٣٤- تحريف التوراة – دار الكون بمصر - ٢٠٢٤.

٣٥- التزوير الفاضح لسرديات التوراة - نظرية المفكر فاضل الربيعي عن اسرائيل المتخيلة –دار الكون بمصر - ٢٠٢٤.

٣٦ - رشيد مجيد... إنساناً وشاعراً – دار المتن للطباعة والنشر - بغداد- ٢٠٢٤.

- حصلت الطالبة "فاطمة فروزان" من جامعة الامام الخميني العالمية في مدينة قزوين على الماجستير بترجمة كتاب ألف ليلة وليلة وسحر السردية العربية الى اللغة الفارسية عام ٢٠١٣.

***

كتب جاهزة للطبع :

- كائنات تفكر - انسنة الكائنات في القصص الشعبي العربي.
- محفزات التلقي - "نحو رؤية جديدة لاستجابة المتلقي في القصص الشعبي".
- روائيون عراقيون.
- الطبيعة في شعر أبي تمام. بحث لنيل شهادة الدبلوم العالي.
- ميتا القصيدة – قراءات في القصيدة العربية القديمة – دراسات.
- إشكاليات الخطاب النقدي الأدبي العربي المعاصر- دراسات أدبية.
- صياغات شعرية في كسر رتابة الشعر- "دراسة في شعر عباس ريسان".
- اسئلة السرد- (دراسات في الرواية).
- اسئلة الشعر - (دراسات في الشعر).
- الخزاف الماهر – رواية.
- الشواية – رواية.
- حب في زمن النت – رواية.
- وأصبح (إِلْمَي سسيَان) – رواية.
- حكايات مدينتي الثلاث – رواية.
- السقوط في دائرة الضوء – رواية.
- الكتاب المفتوح – رحلتي الى الاتحاد السوفيتي – أدب الرحلات.

- الجائزة التقديرية عن قصة (الموت حياة) في المسابقة الابداعية لعام ١٩٩٢.
- الجائزة الأولى عن قصة (النهر يجري دائماً) في المسابقة الابداعية لعام ٢٠٠٠.
- الجائزة الثالثة عن رواية (طريق الشمس) في مسابقة الرواية لعام ٢٠٠١.
- الجائزة الثانية بمسابقة مانديلا للرواية عن رواية "الكمامة البيضاء والقفاز الازرق"– ٢٠٢١.
- الجائزة الثانية في مسابقة منف للآداب العربية لعام ٢٠٢٢ عن رواية الهاوية.
- الوصول الى القائمة الطويلة لجائزة الروائية المصرية الراحلة رضوى عاشور في دورتها الأولى بتاريخ ٢ / ٩ /٢٠٢٢ .

المحتويات

مدخل ٧

"ضباب الذكريات".. **٧**

القسم الأوّل.. ١١

عنكبوت، وحمامة، وشجرة بلوط، وكلب **١٣**

الطريق إلى السجن..................................... **٢٥**

الحرية المفقودة... **٣٧**

القسم الثاني.. ٤٧

"استيقاظ"... **٤٩**

القسم الثالث.. ٥٣

"نور" **٥٥**

"جميل" **٦٩**

"حلو"... **٨١**

"ضياء" **٩١**

"نهار"... **١٠١**

"قداح".. **١١١**

"ريحان"... **١٢١**

"الكلب وفاء".. **١٣١**

نهاية الحكاية... **١٣٩**